المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

النقد الأدبي البيئي وتمثلاته
في رواية فئران بلا جحور لأحمد إبراهيم الفقيه

The Representation of Eco-criticism in the Novel Rats without Burrows by Ahmad Ibrahim Al-Faqiih

بقلم الدكتور

سعيد فرغلي حامد علي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب ـ جامعة أسيوط ـ مصر

الترقيم الدولي/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار ديسمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

النقد الأدبي البيئي وتمثلاته
في رواية فئران بلا جحور لأحمد إبراهيم الفقيه

سعيد فرغلي حامد علي
قسم البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة أسيوط ـ مصر
البريد الإلكتروني: sa@gmail.com

الملخص

يتغيَّا هذا البحثُ الوقوفَ على النقد الأدبي البيئي في رواية فئران بلا جحور للروائي الليبي أحمد إبراهيم الفقيه (١٩٤٢ : ٢٠١٩م)، ويسعى لدراستها من منظور الوعي البيئي عند الكاتب، وكيفية استثماره للبيئة وتفاعله معها إبداعيًا وتخيليًا؛ حيث يظهر التخييل البيئي في هذه الرواية واضحًا وجليًا، وهو ما يجعلها محضنا تطبيقيا ملائما لمنهج النقد البيئي بوصف الرواية نبتة جغرافية تزخر بمكونات بيئية حملتها لنا الصحراءُ الليبية، وتمثلت البيئةُ فيها على نحو تطبيقي عبر عددٍ من التمثلات بداية من التشكيل اللغوي، والحس المكاني، والبيئة الحيوية ومركزية الإنسان مرورًا بثيمات الأخلاق البيئية، والتوازن، والعدالة البيئية كما اشتغل البحثُ إجرائيا على الإيكولوجيا الاجتماعية، والاستدامة البيئية في الرواية محل الدراسة.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الحداثة، النقد البيئي، الرواية، أحمد إبراهيم الفقيه، فئران بلا جحور.

The Representation of Eco-criticism in the Novel Rats without Burrows by Ahmad Ibrahim Al-Faqiih

Saeed Farghaly Hamed Ali
Department of Rhetoric and Assistant Criticism, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Assiut University, Egypt.
Email: sa@gmail.com

Abstract

This research aims at investigating eco-criticism in the novel entitled "Rats without Burrows" by the Libyan novelist Ahmad Ibrahim Al-Faqiih (1942-2019). It explores the author's ecological awareness in the novel under study. Moreover, it examines to what extent he figuratively reacts to and makes use of environment. It is found that he has fantastically mastered ecological imagination. In addition, he has made the novel as a geographical reflection of the ecological components of the Libyan desert. These two reasons have made the novel under study an applicable model for eco-criticism. Other reasons are the linguistic elements used, sense of place, environment, man as an axis of the ecological morals, balance, and justice. Furthermore, this research works on social ecology on one side and sustainability and its examples on the other side.

Keywords: Post-modernism, Eco-criticism, novel, Ahmad Ibrahim Al-Faqiih, Rats without Burrows.

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسيسٌ نظري :

ظهر مصطلحُ ما بعد الحداثة Post Modernisme خلال الفترة الزمنية من سنة ١٩٧٠م إلى سنة ١٩٩٠م، وقد انتقل إلى ميدان النقد الأدبيِّ على يد الناقد المصري الأمريكي إيهاب حسن Ihab Hassan (١٩٢٥: ٢٠١٥م)، _الذي يُعَدُّ من أكبر منظِّري ما بعد الحداثة، ونقادها_ وبُعيد ظهورها تجلت مجموعةٌ من النظريات والتيارات والمدارس الفلسفية والفكرية والأدبية والنقدية التي جاءت بعد مرحلة البنيوية، وعُرفت بنظريات واتجاهات ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، أو ما فوق البنيوية، أو التفكيكية Deconstructionism.

ويُعَدُّ التحولُ من مرحلة البنيوية إلى ما بعد البنيوية بمثابة تحول من احتكار البنية لترويضها، وهو الأمرُ الذي يعني التحول من المركز للهامش، وما يتطلبه هذا التحولُ من تغيرات في الخطاب ومن يتبنونه، ومن ثَمَّ "بدأت بعض الشخصيات المهمة جدا تبتعد عن الإطار الفكري البنيوي، وراحت تتعامل معه وكأنه ليس إطارا جديا ... تغيرت نبرة الكتابة البنيوية الجديدة كما تغيّر موقعها"(١)، ودلفنا إلى دوائر إزاحة المعنى، وتعدد القراءات، وإحلال النسبية الفلسفية محل الثبات، والمادة، والهيولي.

وعلى نحو متصل فقد حملَ فكرُ ما بعد الحداثة جملةً من القضايا والموضوعات التي امتدت للخطابات والنصوص الأدبية؛ بغية تصحيح المفاهيم، وخلخلة الثوابت والمُسلمات السلطوية والمؤسساتية المهيمنة على الأفراد وما يُحيط بهم وتحطيم الأيديولوجيات الموروثة، وكذلك خلخلة الحواجز والحدود ما بين الأجناس أو الأنواع الأدبية وهدمها والدعوة إلى التعدد والاختلاف، وذلك تمهيدا لنقد مركزية الإنسان، وهي المركزيةُ التي صنعت المسافةَ ما بين الإنسان وكل ما يُحيط به من كائنات طبيعية أو عالم طبيعي، ومن ثم اقتضت الضرورة المعرفية والواقعية التوصلَ لتيار أو منهج معرفي يسعى لتأصيل ثقافة تُعنى بالوعي البيئي أو

الإيكولوجي؛ بغيةَ فهم التيارات والفلسفات التراكمية والتراتبية، التي تغذى عليها فكرُ ما بعد الحداثة من جهة، وسعيا حثيثا لحل المشكلات والأزمات البيئية المتفاقمة من جهة ثانية، وهو الأمرُ الذي أدى لظهور النقد البيئي أو النقد الإيكولوجي Eco_criticism؛ إذ لم ينفصل هذا المنهج تبعًا لنشأته وسط تيارات ومناهج ما بعد الحداثة عن فكر هذه التيارات وأصوات هذه المناهج وبخاصة دعواتها إلى المساواة، والعدالة والبحث عن كيفية رصد وتمثيل علاقة الإنسان بالواقع، والبيئة المحيطين به.

الأدب والبيئة (الأدب البيئي) :

يُعنى هذا الجزء من البحث بتناول ماهية البيئة بوصفها مرتكزًا لظهور الأدب، والنقد البيئيين، وبالرجوع إلى مفهوم **البيئة لغةً** يجد الباحثُ أنه وحسبما ورد في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ) يُحيل إلى معان عديدة، لعل أهمها: الإقامة بالمكان، والنزول إليه، والارتباط به، والرجوع إليه فـ"بوأَ : باءَ إلى الشيء يَبوُءُ بَوْءًا : رَجَعَ وبُؤْت إليه وأَبأْتُهُ ...وبُؤْته... والباءَةُ مثل الباعة، والباء: النِّكاح. وسُمي النكاحُ باءةً وباءً من المباءة لأن الرجل يَتَبَوَّأ من أهله أي يَسْتَمكِنُ من أهله، كما يَتَبَوَّأ من داره ... والأصل في الباءةِ المَنْزل"(٢)

أما **البيئة اصطلاحًا** فهي من المفاهيم الشائكة، والمتشعبة وذلك نظرًا لتعدد المجالات والميادين التي يُستخدم فيها هذا المصطلح، ولعل من التعريفات المهمة التي قُدمت عنها وفقًا للمنظور العلمي تعريفها بأنها "مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائناتُ الحية وتُؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها، أو هي كل الشروط والظروف والمؤثرات المحيطة والتي تؤثر على تطور كائن أو مجموعة من الكائنات"(٣)

وعن نشأة مصطلح البيئة Environment فقد "ظهر هذا المصطلحُ في أوساط الدوائر العلمية الغربية في أواخر القرن التاسع عشر ليدل على مجموع الظروف الخارجية والمؤثرة في نمو الكائنات، كما استخدم للدلالة على الوسط الذي يعيش فيه الكائن الحي"(٤)

وبجوار مصطلح البيئة فقد ظهر في الغرب مصطلحٌ آخر موازٍ هو الإيكولوجيا **Ecology**، واُستخدم هذا المصطلح "للمرة الأولى عام ١٨٦٦م على يد الفيلسوف وعالم الأحياء الألماني أرنست هيكل **Ernst Haeckel** (١٨٣٤ : ١٩١٩م) وقد قام بدمج كلمتين يونانيتين هما **Oikos** التي تعني المسكن أو المنزل و **Logos** التي تعني العلم، فصار المصطلحُ بمعنى: العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط، أو المسكن الذي تعيش فيه"(٥)

ومن الجدير بالذكر أن علم البيئة أو الإيكولوجيا Ecology فرعٌ علميٌّ انبثقَ عن علم الأحياء أو البيولوجيا ويعني "العلم الذي يدرس العلاقات التبادلية بين الكائنات الحية والبيئة التي نعيش فيها ويتخذ موضوعا لها المنظومات البيئية (النهر والبحر والغابة والصحراء والنطاق الجوي والنطاق المائي واليابسة والنطاق الحيوي والكرة الأرضية ككل"(٦)، وهو بهذا يعني عملية تفاعل العلاقات بين الكائنات البشرية، وغير البشرية؛ حيث تدرس الإيكولوجيا علاقة الإنساني بغير الإنساني، أو البشري بغير البشري.

ويدخل علمُ البيئة إلى دوائر الأدب والدراسات الأدبية انطلاقا من العلاقة الجدلية بين العلم والأدب بوصف الأخير فنا يعكس الحياة والواقع؛ ولذا فهو معنيٌّ بمعالجة القضايا والموضوعات والمشكلات المتجددة بتجدد العصور ومتغيرة بتغير الأزمان، ومن هذه المتغيرات التي طرأت على حياتنا، وواقعنا مؤخرًا تأتي القضايا والمشكلات والمخاطر البيئية كالتغير المناخي، والتلوث البيئي ...، وما ينتج عنها من آثار سلبية كالمجاعات، والاحتباسات الحرارية وهي آثارٌ يتكاتف العالمُ اليومَ لمواجهتها والحيلولة دون وقوعها، أو التقليل من آثارها، فالأدب عاملٌ رئيس

لإدراك الحقائق البيئية؛ "إذ صار الأدب البيئي وثيقة معالجة للضرر الذي حاق بالمنظومة الطبيعية أخلاقيا وأدبيا، ونشر الوعي وتشكيل حركة تنوير عالمية للنظر في البيئة، لإعادة صحة كوكب الأرض وما عليه"(٧)

وعن ربط الأدب والدراسات الأدبية بالبيئة والدراسات البيئية فقد قرر غلين لوف G.Loofa أن "وظيفة الأدب اليومَ هي إعادةُ توجيه الوعي الإنساني _في إشارة للأزمة البيئية_، وذلك التزامٌ أخلاقي"(٨)، انطلاقًا من العلاقة الوثيقة بين الأدب، والمحيط البيئي الذي ينتج عنه، وهي علاقةٌ تاريخية وأزلية حاول الأدبُ من خلالها _ولا يزال_ توجيه العناية، وشد الانتباه للمشكلات والمخاطر البيئية مع ازدهار التربية البيئية، التي نشأت في رحاب الفلسفة الحديثة مع سبعينيات القرن الماضي وبخاصة بعد التطورات والتغيرات، التي حدثت مؤخرًا وطالت آثارها العالم كله، مما يستوجب من الجميع التكاتف لحلها لما تبعث عليه من تهديدات وعواقب وخيمة تهدد حياة كافة الكائنات.

تأسيسًا على ما سبق فإن الأدب البيئي أو ما يُعرف بالأدب الأخضر Green Litterae هو الأدبُ الذي ظهر في سبعينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة ومن بعدها في عدد من الدول الغربية مثل بريطانيا، وكندا، وايرلندا وهو أدبٌ يدعم البيئة، ويساند القضايا البيئية؛ وذلك انطلاقا من أن وظيفة الأدب لم تعد قاصرةً على مجرد تقديم متعة فنية وجمالية، بل غدا وسيلة مهمة للإفادة، ومحاولة تصحيح عديد من الأفكار والمسارات الخاطئة في الحياة والواقع، وهي الأمورُ التي أدت إلى تجديد وظائف الأدب وغاياته وتحديثها.

ولمَّا كان الأدبُ وسيلةً مهمة من وسائل تنمية الوعي، فإن المهتمين بالطبيعة والبيئة قد اتخذوا هذه الوسيلة للدفاع عن البيئة وقضاياها، ونشر الوعي البيئي Enviromental Awareness؛ إذ لا يمكن مواجهة المخاطر والأزمات البيئية والمساهمة في حلها ما لم يتم الوعي بها أولًا، فغدت الطبيعة والبيئة وقضاياهما من المهام الرئيسة للناقد والباحث البيئي، وذلك عن طريق فحص العلاقات والروابط

بين الأدب والطبيعة وإقامة طرائق وصلات بين العوالم البشرية وغير البشرية بغية خلق مواقف وآراء للقراء والمتلقين تجاه البيئة وقضاياها من أجل البحث عن حياة أفضل لجميع الموجودات والكائنات؛ إذ إن "سلامة الحياة غير البشرية على الأرض وازدهارها يُعَـدُّ قيمة في حد ذاته، بغض النظر عن جدوى العالم غير البشـري للأغراض الإنسانية"(٩)

ووفقًا لمبدأ أسبقية الأدب على النقد فقد تواجد منهجُ النقد البيئي ومارس عملَه استنادًا على وجود الأدب البيئي أو الأدب الأخضر، وهو الأدبُ الذي يحاول فيـه الأديبُ رصدَ العلاقة التفاعلية ما بين الإنسان، والبيئة من حوله مـع الأخـذ فـي الحسبان خصوصية النصوص الإبداعية، وخصوصية عناصـر الكتابـة الأدبيـة وآلياتها.

أما من حيث التناول العربي للبيئة وتأثيرها في تراثنا العربي فيُعَـدُّ ابـنُ عبدربه (ت٣٢٨هـ) في القرن الثالث الهجري من أوائل الذين قدموا طرحًا معرفيًا قريبًا من الطرح المفاهيمي الغربي؛ حيث أشار في مقدمة كتابه "العقد الفريد" إلـى أثر البيئة في الوسط الطبيعي، الذي تعيش فيه الكائنات الحيـة، وكـذلك المنـاخ السياسي، والاجتماعي، والفكري"(١٠)، ومن قبله يجيء الجاحظ (ت ٢٥٦هـ)، ومن بعده يأتي مسلمة المجريطي (ت ٣٩٨هـ) وبخاصة في كتابه "الطبيعيات وتـأثير النشأة والبيئة على الكائنات الحية"(*)، وهو الكتابُ الذي حمل عنوانه الرئيس كلمـة البيئة بشكل واضح، وجلي.

وعلى نحو متصل فـ"إن أدب البيئة هو نشاطٌ إبداعيٌّ مفكـرٌ فيه، وبناء فني تحركه مقصديات فلسفية وإيكولوجية وفنية، وتدفعه نوازعُ الخوف مـن اخـتلال العلاقات بين الكائنات ومحيطها البيئي، ومن ثم فهو مشاركة إبداعية تهـدف إلـى التأسيس لوعي بيئي جديد يكف فيه البشرُ عن تخريب شروط الحياة، ويُعـاد فيـه النظر في أساليبهم في التعامل مع الكائنات التي تُقاسـمهم الوجـودَ علـى ظهـر الكوكب"(١١)

وبعـــدُ فإن الأدبَ البيئي فرعٌ من فروع الأدب، "وهو أدبٌ لم يزل يـــتلمس طريقَه بصعوبة نحو التكَّون والتشكل، ويسعى كُتّابه إلى تأسيس أسلوبية أو شعرية خاصة به، تُطوع البيئة التي ظلت موضوعا علميا إلى مقتضيات التخييل والتمثيـــل والمجاز"(١٢)، وتدخل بها إلى دوائر الأدب بكافة أجناسه، وأنواعه.

النقد البيئي Eco_criticism (**الحدود والمهام والاشتغالات**) :

نما النقد البيئي مع نهاية النصف الثاني من القرن العشرين وتحديدًا بالمملكة المتحدة في العام ١٩٧٨م، وذلك بالتوازي مـــع ظهـــور عـــددٍ مـــن المنظمـــات والمؤسسات البيئية الدولية والإقليمية، التي نادت بضرورة العناية بالبيئة والمحافظة عليها، ونبّهت إلى ما قد تُسفر عنه المشكلاتُ البيئية من مخاطر وتحديات وأزمات؛ ولذا فهو منهجٌ توزعته حقولٌ علمية ومعرفية مختلفة قبل أن يـــدلفَ إلـــى مجـــال الأدب، والدراسات الأدبية، ومن ثم يشهد البحثُ الأدبي والنقدي في الفترة الأخيرة زخمًا معرفيا، وبحثيا في هذا الميدان الجديد من ميادين المؤسسة النقدية.

وقد ظهر مصـــطلحُ النقـــد الأدبـــي البيئـــي Environmental Literary Criticism للمرة الأولى في الدراسات الأدبية الأميركية، و"يُعَدُّ ويليام رويكيـــرت William Ruekert أول ناقد غربي تبنى هذا المصطلح، وذلك في مقالة له عـــن "الأدب وعلم البيئة: تجربة في النقد البيئي"، وهي المقالة التي نُشـــرت فـــي عـــام ١٩٧٨م، ومن بعدها نشر كتابَه "النقد الأدبي البيئي"، وذلك في عام ١٩٩٤م"(١٣)

أما عن مفهوم النقد البيئي فهو النقدُ الذي يُعنى بدراسة "العلاقة بـــين الأدب والبيئة المادية، فكما يبحث النقد النسوي Feminist Criticism في العلاقـــة بـــين اللغة والأدب من منظور واع للجنس gender، ومثلما يستحضر النقد الماركســـي Marxist Criticism وعيا وإدراكا لأنماط الإنتاج والطبقة الاقتصادية عند تعامله مع النصوص الأدبية، يتخذ النقد البيئوي منهجًا يرتكز إلى الأرض في تعامله مـــع النصوص الأدبية"(١٤)

وقد عرَّفه لورنس بويل Lawrence Buell في كتابه الخيال البيئي The Environmental Imagination بأنه "دراسة العلاقة بين الأدب والطبيعة، التي تسودها روحُ الممارسة البيئية"(١٥)، أو أنه ووفق تعبيرٍ آخر "دراسة النصوص البيئية الصريحة، بوساطة مقاربة بحثية، واستكشاف التعقيدات البيئية والعلاقات بين الإنسان والطبيعة في أي نص أدبي"(١٦)

ولعل تعريف جرج جرارد Greg Garrard للنقد البيئي بأنه "دراسة الطبيعة والثقافة بين الإنساني واللإنساني على مدى التاريخ الثقافي البشري ... وتضمين تحليل نقدي لمصطلح الإنساني ذاته"(١٧) هو من أكثر التعريفات موسوعية وشمولية Holisteعن النقد البيئي لما يتضمنه التعريف من تداخل بين الكائنات الطبيعية، وتبادل صور الحياة في علاقة هذه الكائنات وفق التاريخ أو المنحى الثقافي العام، وهو المنحى الذي يشمل في طياته اللغة والأدبَ ويسلط الضَوء على علاقتهما بالبيئة والمحيط البيئي.

يتخذ النقدُ البيئي من الأدب، الذي يستخلص المكونات والمقومات البيئية موضوعًا له، ويسعى إلى تحليل وتفسير الوظائف البيئية في النصوص الأدبية، فإذا كان النقدُ الأدبي يُركز على ارتباط الأدب بالبيئة وفقًا للمقولة التاريخية "إن الأدب ابنُ بيئته" فإن النقد البيئي _وفقا لتغيّر نظرة الأدب للبيئة، وما طرأ عليها من تحول، وما استُجد من إبدالات ثقافية ومعرفية في هذا الشأن_ يروم كشف العلاقات والترابطات القائمة بين الأدب والبيئة وتجلية التفاعل الحاصل بين الأديب والبيئة وتحليل التمثلات الثقافية والأدبية، التي أنتجت الرؤية البيئية والوعي البيئي في العمل والكيفية التي تشكلت بها هذه الرؤية وهذا الوعي من حيث اللغة، والخيال؛ إذ ينظر النقد البيئي إلى النص الأدبي بوصفه وثيقة ثقافية شمولية، بينما تتنزل الخاصية الجمالية في هذا النص منزلة تالية لصالح الفكر البيئي ومحاولة التوعية بهذا الفكر، فيغدو من مهام النقد البيئي "دراسة تمثلات البيئة في النصوص الأدبية وكيف يعمل الخيالُ على تشكيلها، أو على تحفيز الوعي بها"(١٨)

ينتمي النقدُ البيئيُّ(*) إذا إلى ما بعد الحداثة، التي يتطابق فكرُها مع النقد البيئي حول تقويض المعتقد الاستهلاكي للموارد البيئية والطبيعية، ومحاولة فهم الأنساق والمضمرات، التي تتصل بالنظريات المعرفية وعلى رأسها النقد الثقافي، ونظرية ما بعد الاستعمار، والنسوية؛ إذ يتفق النقدُ البيئيُّ في طرحه المعرفي والعلمي مع هذه النظريات والمناهج حولَ ضرورة الخروج من دوائر البحث الداخلي أو النسقي والقراءة الواحدية أو الفردانية ومحاولة الانطلاق للبحث في التجارب والمسارات المُدركة حسيًا، والمنبعثة من الحياة الواعية أو القصدية ومحاولة تناولها وعرضها بوصفها مفاهيم حرة تنهض على الاختلاف والتعددية غير المركزية، فالمقاربة الإيكولوجية تنطلق في دراسة النص من الخارج إلى الداخل كما في الشكل التوضيحي الآتي :

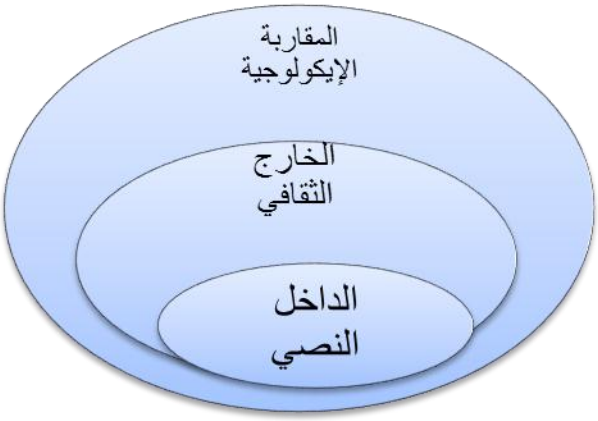

وقمينٌ بالإشارة هنا أن النقدَ البيئيَّ نقدٌ بين_منهاجي interdisciplinary؛ إذ يضم في طياته مداخل كثيرة، ومعارف عديدة وهذه المداخل وتلك المعارف تختلطُ فيما بينها لتُنتج لنا كمًا كبيرًا من المفاهيم والمصطلحات، وتنطلق من عديد من العلاقات، التي تأتي على رأسها علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة من حوله انطلاقًا من أن "هذه العلاقة هي التي ستنعكس فيما بعد على الإنسان، وتُؤثر في علاقاته بينه وبين بقية البشر، وهذا السعي من طرف الفلسفة البيئية إلى إعادة تأسيس العلاقات بين الإنسان والبيئة، والذي يعتمد على التكافل خاصة، هو الذي

يقود البشرية إلى حماية البيئة والحفاظ عليها"[١٩]، وقد لجأ الباحثون، والدارسون إلى هذا النهج بين_المعرفي، أو بين_التخصصي إيمانًا منهم بأن السبلَ البحثية المُفرطة في التخصص، أو المُجزأة لم تعد تُجدي نفعًا أو تؤدي لنتائج إيجابية وبخاصة في البحث عن مسائل المعنى والقيمة، أو مواجهة التحديات والأزمات بما يجعل النقد البيئي نقدًا ثريًا وغنيًا ومتعدد المرجعيات.

وعلى صعيد الدرس النقدي العربي يُعَدُّ الدكتور محمد أبوالفضل بدران أولَ من عبَّد الطريق لدراسة النقد البيئي، وذلك من خلال كتابه "النقد الأدبي البيئي (النظرية والتطبيق)"، وهو الكتابُ الصادر عام ٢٠١٠م، بالإضافة إلى بحثه المهم "أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية"، والمنشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، دبي، ٢٠١٥م، وقد سبق كتاب الدكتور بدران بحثٌ للدكتورعبدالحميد سيف الحسامي بعنوان "رواية الضباب أتى .. الضباب رحل لمحمد عبدالوكيل جازم قراءةٌ من منظور بيئي"، وهو البحثُ الذي نُشر للمرة الأولى في مجلة علامات في النقد. المجلد الثامن عشر. النادي الأدبي الثقافي. جدة ٢٠٠٩م، ومن بعدهما توالت الجهودُ البحثية في هذا الميدان الحيوي والمهم من ميادين النقد.

وعن **نشأة النقد البيئي** فقد نشأ هذا المنهجُ النقدي في سبعينيات القرن الماضي بوصفه موضوعًا مُلحًا في ظل عديد من الأزمات والتحديات البيئية، ومنها مركزية الإنسان "وفي هذا المنعطف بالذات تدخل المهتمون بالبيئة والطبيعة، مستغلين هذه الخلخلة للمناداة بضرورة الاعتراف بأن هذا الكون بكل ما فيه، ليس ملكًا للإنسان وحده، وإنه من غير الممكن أن يظل سادرًا في ادعائه بأنه سيد الكائنات، وإن هذه الكائنات إنما تُقاسمه الحياة، وتشترك معه فيما تُقدمه الطبيعة من خير وحرية"[٢٠]

ويُعَدُّ النقدُ الماركسي Marxist Criticism "من أهم التيارات النقدية التي ساعدت على فتح مدخل مهم لدراسة علاقة الأدب والنقد بالبيئة؛ حيث إنه نتج عنه

التيار الواقعي في الأدب، والمقولات النقدية اللينينية، التي ترى أن الفن شكل خاص من الوعي الاجتماعي يعكس الواقع في صورة فنية رمزية؛ حيث إن هذا الاتجاه يعتمد على ربط الأدب بالواقع من خلال النظر إلى وظيفة النص الأدبي المتوخاة والتي تسعى إلى التعبير الصادق عن الحياة بصفة عامة من خلال مفهوم الانعكاس"(٢١)

وتتفق الرؤية الماركسية مع النقد البيئي حول عدد من المحاور، لعل أهمها نبذ فكرة السيطرة، والاستغلال؛ إذ إن نشأة النقد البيئي في الغرب جاءتْ متزامنةً مع الحركات السياسية، التي تنتمي للماركسية، وقد تمثَّل الشغلُ الشاغل لجل هذه الحركات في توضيح الصراع في العمل بين أصحاب الأعمال، والعمال وبيئاتهم وهو الأمرُ الذي نجمت عنها ثورة آنذاك وقد سعى روادُها لإلغاء الطبقات "كما عبّر عن ذلك بيبر Papper بقوله: سيكون المجتمع الشيوعي الحقيقي الذي سيخلف مرحلة الثورة مجتمعا بلا طبقات، وعندما تتحقق الدولة سوف تندثر أشكال التمزق البيئي كلها، والاستغلال الاقتصادي والحرب ...؛ لأنه لم يعد هناك حاجة لها"(٢٢)

أما من حيث الرؤية الواقعية فتتحدد علاقةُ الأدبِ والنقد بالبيئة انطلاقًا من أن الأدبَ يعد وسيلة خادمة للمجتمع والواقع بكافة أبعاده، وتتبدى أهميته بوصفه "جزءًا من العولمة السائدة في العالم، ويتطلب على مستوى الإبداع وعي المبدع فهو من خلال لا وعيه يتحرك نحو الجهد الواعي لخلق عمل فني تُساعد بنيتُه على تشكيل اللاوعي في المتلقي أو اللاوعي المكاني في حالة الإيكولوجية"(٢٣)، ومن ثَمَّ يؤدي النقد البيئي دورَه انطلاقا من المسئولية الإبداعية، التي يحملها المبدع أو الكاتب لتوعية المتلقي، وتبصرته بمكانته الواقعية، والبيئية وذلك بالتركيز حول ما يُمكن أن يحدثَ للمتلقي لحظة قراءة النص الأدبي البيئي، وكيف يستطيع أن يوجهه هذا النص للعناية بالبيئة وكائناتها استنادًا إلى أن "النقد البيئي يهتم بدراسة النصوص، والخطابات البيئية، والإبداعية، في ضوء نظرية بيئية إيكولوجية، تبحث عن مكانة البيئة أو الطبيعة أو المكان أو الأرض أو الحياة داخلَ الإبداع الأدبي والفني، وذلك

بالتنظير والتحليل والقراءة والفحص والدراسة؛ بغية رصد رؤى الكتّاب والمبدعين والمثقفين تجاه البيئة، وخاصة بعد ظهور الحركات والجمعيات والمنظمات والنوادي الداعية إلى الاهتمام بالبيئة بعد تفاقم ظاهرة التلوث عالميا برًا، وبحرًا، وجوًا"[٢٤]

وعلى نحو متصل يستقي النقدُ البيئيُّ مددَه ومنطلقاته المعرفية والمنهجية "من حركات حماية البيئة التي نشطت في ستينيات القرن العشرين، وعلى الرغم من وجود أنماط أخرى من النقد السياسي ... التي حظيت كلها بشرعية وانتماء كامل إلى عالم النقد، إلا أن النقد البيئوي ما زال يجابه معارضةً شديدة تعترض طريق انضمامه إلى تيارات النقد المتعددة"[٢٥]

وعن أهمية النقد البيئي فإنها تتأتى من ضرورة "التنبيه على ما آل إليه الكونُ من دمار وخراب على أيدي علماء الذرة والكيمياء والأحياء، الذين لم يجدوا من روادع الأخلاق (تجاه البيئة) ما أودى بالبشرية في هذه الانعطافات الخطيرة في تاريخها. وما الحرب والأسلحة والدمار والمجاعات وحوادث تشرنوبل والتلوث وثقب الأوزون والأمراض الجديدة وغيرها إلا أثر من ضياع الوعي البيئي عند علماء العلوم التطبيقية؛ لذا فإن علماء الإنسانيات لديهم فرصة حقيقية لإثبات أهميتهم في تلقين هؤلاء أهمية أخلاق العلم والوعي البيئي والخيال البيئي، فالبيئة ليست حقل تجارب لفئة، بل علينا أن نخلقَ وعًيا بيئًيا لدى الجميع؛ لأننا نعيش فيها معًا"[٢٦]، ومن ثَمَّ يأتي الاهتمامُ بالبيئة انطلاقًا من الوعي بمسئوليتنا جميعًا في الحفاظ عليها، ولمَّا لم تؤت المؤتمرات العلمية، ولا المؤسسات التوعوية، ولا وسائل الإعلام ثمارَها في توصيل هذا الوعي أو إنتاجه تدخل الأدباءُ والمبدعون المهتمون بالطبيعة والبيئة للمساهمة في هذا المجال، واتجهوا إلى إبداع نصوص أدبية ذات سمات بيئية إيمانًا منهم بدور الأدب في النهوض بالوعي البيئي، وتأثير هذا الوعي في المتلقين، وما يمكن أن يقدمه من إسهام في حل أو معالجة القضايا، والمشكلات البيئية الراهنة.

هــذا وترجع أهمية الالتفات لمنهج النقد البيئي أو الإيكولوجي فــي الفتــرة الأخيرة أيضًا لتطور العلوم العلمية والإنسانية، وتداخل الاختصاصات فيما بينهــا، وهو ما يؤكد شمولية النقد البيئي وتقاطعاته المعرفية والنظرية؛ لما للطبيعة والبيئة من أهمية كبيرة على المستويات كافة.

وعلى نحو أكثر تخصصًا يرصد النقد البيئي علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة من حوله سواء أكانت مكانا جغرافيا أو أرضا أو حيوانا أو نباتا ...، وتتبدى هــذه العلاقة وفق مفاهيم وثيمات علمية وأدبية بما يعني أنه منهج تتلاقى فيه التوجهــات العلمية بالنواحي الفنية والأدبية دون أن تجور إحداهما على الأخرى، وذلــك مــن خلال معالجة تنهض على الوعي بمكانة البيئة في الخطابات والنصــوص الأدبيــة وكشف علاقة الإنسان بالمحيط البيئي من جميع جوانبه.

وعن علاقة النقد البيئي بالأنواع والأجناس الأدبية فإن المقاربة النقدية البيئية تُعَــدُّ قريبة الصلة بالنظرية السردية والسرد وبخاصة ما بعد الكلاســيكي، وهــو الأمرُ الذي يؤكده سلوفيتش Silufitsh عندما نجده يُقرر "أن النقد البيئي لا يقوم من دون سرد، يرتقي بإدراك لسؤال يُطارد كل تيمة سردية : لماذا نكتب؟ وأين نحــن في العالم؟"(٢٧)، وتتقرر هذه الصلة الوطيدة أيضًا بوصف السرد إجــراءً حياتيًــا، وممارسة مكانية وهو ما يدعو إلى ارتباط النقد البيئي بالفضاءات السردية وعلــى رأسها فضاء المكان انطلاقا من أن علاقة الشخصية بالمكان علاقة ارتباطية غيــر انفصالية حيث تطبع البيئة والمكان الشخصيات بصفاتها، ومن ثم فلا يمكن تصور النص الأدبي بمعزل عن المكان، والبيئة المكانية؛ إذ تُعَــدُّ الرواية من أكثر الأنواع الأدبية وأجدرها من حيث القدرة التعبيرية عن المكان والبيئة بمختلف مظاهرها.

وبعــدُ، فإن النقد البيئي أو الإيكولوجي نقدٌ ما بعد حــداثي يتــوخى سُــبل النهوض بالنص الأدبي ويمنح القارئ فكرًا، ووعيًا جديدًا بذاته وبمحيطه الطبيعــي والبيئي، كما يحاول هذا النقدُ كسر المركزية الإنسانية أو مركزة الإنســان، التــي كانت عاملًا أساسيًا في عديد من المشاكل، والأزمات البيئية.

من التنظير إلى التطبيق (رواية فئران بلا جحور لأحمد إبراهيم الفقيه) :

يُقدِّم لنا الروائي الليبي أحمد إبراهيم الفقيه في روايته فئران بلا جحور (صفحة من كتاب الجوع) سردًا واقعيًا وحياتيًا، ويستعيد من خلال الذاكرة حياتَه التي عاشها وهو طفلٌ في الصحراء الليبية، التي كانت مسرحًا لأحداث هذه الرواية وبطلًا مكانيا، وجماعيا لها وبخاصة منطقة "جَنْدُوبَة"، التي تقع في الجنوب الليبي؛ حيث تبدأ الرواية بذكر رحلة قافلة قادمة من منطقة الشمال "مزدة" إلى منطقة "جندوبة"، من خلال مجموعة من الأشخاص قوامهم أربعون شخصًا وخمسة جمال وثلاثة حمير وأربعة كلاب وحصان واحد، يتقدم هذه القافلة الشيخُ حامد أبوليلة، وذلك بحثا عن الرزق والطعام بعدما جدبت حقول مزدة، وجفت آبارها ليتفاجأ أفرادُ القافلة أو أهل النجع بأن حقول جندوبة خالية من السنابل، ويتسرب الخوف من الجوع والهلاك إلى نفوسهم فمؤونهم بدأت في النفاد ولا يستطيعون العودة إلى مزدة مرة أخرى، وبعد مضي أيام يكتشف عليٌّ حفيد الشيخ حامد أثناء لعبه وحفره بالأرض وجود سنابل قد خبأتها الجرابيع في جحور، ليبدأ أفرادُ القافلة استخراجها، وفي هذه الفترة تحل قافلة ثانية قادمة من الشرق قوامها ثمانية، هم (أولاد جبريل) يفدون إلى المكان، ويتكتم الشيخ حامد ومن معه على أمر السنابل الموجودة بالجحور، ولكن مع مرور الوقت يتكشف السر، ويتقاسم آل جبريل جحور السنابل مع أهل النجع.

تطرح الروايةُ موضوعًا رئيسًا هو الصراعُ بين الكائنات البشرية ممثلة في قافلتي أهل النجع وآل جبريل، وكذلك الصراع بين الكائنات البشرية وغير البشرية ممثلة في أفراد القبيلتين والجرابيع وغيرها من الكائنات الأخرى، والصراع بين الكائنات غير البشرية وبعضها البعض كالصراع بين الجرابيع والثعابين، والكلاب والذئاب وكُلٌّ صور هذا الصراع تأتي من أجل البقاء على قيد الحياة، ويُنهي الكاتبُ روايتَه بسيل كبير يجرفُ أمامَه كُلَّ شيءٍ من الكائنات، والموجودات.

نُشرت هذه الرواية بدايةً من العام ١٩٦٧م في مجلة الرواد ثم توقف الكاتبُ فترةً طويلة عن تكملتها كما يقول في مقدمتها: "**وقعتْ النكسة، فلم أجد في نفسي أية رغبة لكتابة أو تبييض أو نشر أي شيء**"(٢٨)

تأتي هذه الرواية بعد مرحلتين من مراحل الاحتلال لليبيا، وهما الاحتلال الإيطالي (١٩١١ : ١٩٤٣م)، والاحتلال البريطاني_الفرنسي (١٩٤٣ : ١٩٥١م)، وهو العامُ الذي حصلت فيه ليبيا على استقلالها مع بداية الأسرة السنوسية، ويتبدى فكرُ ما بعد الاستعمار في الرواية واضحا وجليا عبر عديد من الأمور، لعل أهمها حق الأرض، والألغام التي زرعها الاحتلال وخطرها، والإجحاف البيئي بل إن الكاتب يرمز فيها بداية من العنوان للواقع وبخاصة السياسي فالفئران ترمز للشعب الليبي، والجحور هي الأرض الليبية، وأهل النجع هم الغُزاة الإيطاليون الذين استولوا على السنابل أو خيرات الأرض.

تُصنف روايةُ فئران بلا جحور، التي تحمل عنوانا آخر فرعيا (صفحة من كتاب الجوع) على أنها رواية صحراء تتبع أدبَ الصحراء، ولا يقتصر الكاتبُ في هذه الرواية على مجرد الوصف الخارجي للطبيعة أو البيئة الصحراوية، وإنما نجده يتفاعل مع هذه البيئة، ويحمل وعيا بيئيا نحوها، ونحو المحيط التي عاش في كنفه، فقد تنبه الفقيه للقضايا والمشاكل البيئية التي أحاطت به، وحاول معالجتها فنيا، وإبداعيا، وسرديا فتبدت لديه المقدرة الفنية على بناء صور خيالية للصحراء، التي ظهرت في الرواية بصورة فنية وجمالية عالية.

وقد عمد الباحثُ إلى اختيار هذه الرواية محضنًا للتطبيق الإجرائي لعدة أسباب، لعل أهمها:

_ جدة منهج النقد البيئي وحداثة البحث فيه، وهو الأمرُ الذي من شأنه أن يُطَّور البحث النقدي، ويفتحه على آفاق جديدة؛ إذ إن الإسهام البحثي والنقدي العربي في هذا المنهج يُعَدُّ محدودًا موازنة بغيره من المناهج الأخرى؛ لذا يأتي

هذا البحثُ مع غيره من البحوث لسد الفراغ البحثي في هذا الميدان، الذي احتدم النقاشُ فيه مؤخرا على المستويين المحلي، والبيو_إقليمي، والعالمي.

_ ملائمة منهج النقد البيئي للرواية من حيث الإجراء، ولوجود خيال بيئي واضح، وجلي عند الكاتب.

_ وجود تحذيرات كثيرة في الرواية ضد المخاطر، التي تهدد الطبيعة والبيئة مثل التغيّر المناخي، والتصحر وقطع الأشجار، والجفاف، والتلوث البيئي، والسيول...؛ ولذا فإن تطبيق هذا المنهج وربطه بالإبداع الأدبي وبخاصة الروائي يُسهم في رفع درجة الوعي، ويُوفر للباحثين والقراء فرصة مهمة لإدراك الحضور البيئي في العمل الروائي والبحث فيه، ويمنح فضاءً جديدا لفحص التفاعلات البيئية في النصوص الإبداعية.

_ أن الخطاب الروائي عند أحمد إبراهيم الفقيه لم يأخذ حقه من الدرس، والبحث والدراسة رغم قيمته العالية، ولا توجد _على حد علمي_ دراسة أو بحثٌ تناول الخطابَ الروائي أو إحدى روايات الفقيه من منظور النقد البيئي، ومن ثم يعد هذا البحث أول محاولة لدراسة الخطاب السردي عند الفقيه من منظور النقد البيئي.

وسيعمد البحث في الصفحات القادمة من القسم أو الجزء التطبيقي إلى مقاربة تمثلات النقد البيئي في رواية فئران بلا جحور، وذلك من خلال التركيز على مستويات المضمر الثقافي، وخطاب ما بعد الاستعمار، والتصنيف المنهجي لتمثلات البحث الإيكولوجي وذلك وفقا للعلاقة الرابطة بين الإنسان والبيئة، وكيفية رصد الكاتب لهذه العلاقة، وتفاعله معها انطلاقا من أن هذه الرواية تُعنى بتأصيل الموروث الليبي، وتجذيره ثقافيا، بالإضافة إلى محاولة الكاتب التعبير عن رؤيته للحياة، والواقع المحيط به.

وبعد، فالقارئ لرواية فئران بلا جحور لأحمد إبراهيم الفقيه يجد أن البيئة والطبيعة قد استحوذت على مساحات كلية كبيرة من الفضاء السردي، ولم يكن وجودها لمجرد الزخرفة الفنية، بل هي عنصرٌ حيويٌّ من عناصر السرد، ووسيلة

مهمة من وسائل الرؤية الفنية والأدبية العامة للكاتب؛ ولذا فإن النقد البيئي للسرد الروائي دوما ما يسعى إلى "إثبات كيف أن عناصر النصوص الأدبية تعمل سوية، أكثر مما يتطلع إلى تحليلها بشكل منفصل"(٢٩)

أما عن الكاتب والروائي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه (١٩٤٢ : ٢٠١٩م) فقد "ولد في الثامن والعشرين من ديسمبر١٩٤٢م ببلدة مزده جنوب مدينة طرابلس، ومن أهم أعماله مجموعته القصصية الأولى "البحر لا ماء فيه"، وثلاثية حدائق الليل ١٩٩١م (سأهبك مدينة أخرى، وهذه تخوم مملكتي، ونفق تُضيئه امرأة واحدة).

دخلت روايته "سأهبك مدينة أخرى" ضمن تصنيف أفضل مائة رواية عربية، وذلك طبقا لتصنيف وبيان اتحاد الكُتَّاب العرب.

حصل الفقيه على درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث، وتولى رئاسة اتحاد كُتّاب ليبيا ١٩٧٨م، وشغل منصب سفير ليبيا في عدد من الدول الغربية، منها: أثينا، وبوخاريست، وقد توفي في الأول من مايو ٢٠١٩م بمدينة القاهرة"(*)

وعلى صعيد الكتابة الأدبية يُعَدُّ الفقيه من الكُتَّاب الذين عرفت كتاباتُهم حضورًا ووعيًا بالمقومات البيئية وارتبطت أعماله بالبيئة وقضاياها ارتباطًا جوهريًا وعضويًا عميقًا؛ إذ لم تخل كتاباته من أحاديث مستفيضة وإشارات جلية عن علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة وتفاعله معهما، وذلك منذ عمله القصصي الأول "البحر لا ماءَ فيه"، وكذك روايته "حقول الرماد"؛ حيث يستند الكاتب في جل أعماله إلى المرجعية البيئية، وبخاصة الصحراء التي تُشكل عنده حياة متكاملة، كما أنها تؤدي دور البطولة بوصفها مكانا في جل أعماله ومنها هذه الرواية محل الدراسة، التي يُصرح الكاتب في تقديمه لها بأن الدافع لتأليفها هو "**تسجيلُ فصلٍ من فصول كفاحهم ضد قسوة البيئة وظلم الطبيعة وتقلبات المناخ الصحراوي وصعوبة الظرف التاريخي**"(٣٠)

تساؤلاتُ البحث :

يحاول هــذا البحثُ في الصفحات القادمة من المقاربة التطبيقية والإجرائيــة الإجابةَ على عددٍ من التساؤلات، لعل أهمها :

_ما علاقة الأدب بالبيئة، وكيف تتمثل علاقة الإنسان ببيئته ؟

_كيف تجلى الفكر الإيديولوجي المُنتج للسردية البيئية عند الكاتب في هذه الرواية ؟

_ما شكل الكتابة البيئية السردية في رواية فئران بلا جحور؟

_كيف تمثلت الطبيعة والبيئة في الرواية، وكيف قُدِّمت البيئة جماليًا فيها ؟

_ما أهم القضايا والمشكلات البيئية التي عالجتها هذه الرواية خياليًا ؟

_كيف ارتبطت التمثلات البيئية بالسياقات السياسية، والاجتماعية فــي الروايــة المدروسة؟

تمثلات البيئة ومكوناتها في رواية فئران بلا جحور (مقاربة إجرائية):

تهدف تياراتُ ما بعد الحداثة، ومناهجها النقدية وعلى رأسها النقد البيئي إلى تجديد الوظائف الأدبية وتحديث طرائق البحث فيها، وتتطلع إلى وصل الأدب بعديد من الروافد الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والطبيعية التي تســم الأدبَ بســمات مائزة، وتُكسبه أهدافا ووظائف مهمة، ومن هذه الوظائف تأتي وظيفةُ النقد البيئي، التي تنهض على "دراسة تمثلات البيئة في النصوص الأدبية وكيف يعمل الخيــالُ على تشكيلها أو على تحفيز الوعي بها، وبذلك يجمع النقد البيئــي بــين التشــكيل الجمالي وبين الثيمات التي يمكن أن تبرز في عمل ما"(٣١)

وانطلاقًا من الوظيفة السابقة يرمي النقــدُ البيئيُّ إلى تقديم آليــات وتقنيــات تطبيقية وإجرائية لقراءة الخطابات والنصوص الأدبية، التي تتخــذ مــن الطبيعــة والبيئة مرتكزًا لها، وكذلك النصوص التي تُعنى بالقضايا البيئية وفق منحى شمولي بوصف البيئة منظومة متكاملة تضم البشر، والحيوانات، والأنهار، والزروع...وكل هذه العناصر تتكامل وتتفاعل فيما بينها.

يبدأ التمثل أو التنزيل البيئي الأول في الرواية محل الدراسة من **تصنيفها**؛ إذ تُعلن الرواية من الصفحة الأولى أو افتتاحيتها عن بيئتها الصحراوية، وعن أنها بنتُ الصحراء "**كانت الشمسُ قد وصلت إلى نقطة هي تماما منتصف السماء...ومن هناك، من موقعها ظلت تُرسل أسهما من نار، أحالت رقعة الأرض الواقعة تحت رحمتها إلى شريحة من الشواء، تفوح منها رائحة الاحتراق. جعلت من حصاها جمرًا ومن رملها رمادًا مُشتعلا، ومن شجيراتها ونباتاتها التي كانت خضراء أكوامًا من الأحطاب اليابسة التي تُوشك أن تشتعل ويتصاعد منها اللهب والدخان...ولم يكن في هذه البقعة من الأرض كائناتٌ بشرية يمكن أن تنزعج من حرارة الشمس، فالذي يُعمّر المنطقة في الوقت الحاضر...هو الجربوع**"[٣٢]

تشي الصفحاتُ الأولى من الرواية باستدعاء المكان، ومحاولة الكاتب تصوير المناخ البيئي والأجواء شديدة الحرارة، وكذلك الإشارة إلى الكائنات التي يمكن أن تعيشَ في ظل هذه الأجواء، وذلك المناخ، وأول ما يلمحه القارئ من هذه المقدمة هو وجود أزمة بيئية تتمثل في غياب البشر والنباتات الخضراء عن المكان فهو مكانٌ لا يصلح لقيام حياة بشرية، بالإضافة إلى أن هذا المشهد السردي الافتتاحي يُجلي فكرة التغيرات المناخية.

اللغة وتشكيل التمثلات البيئية :

تُشكِّل اللغة الأدبية ملمحًا فنيًا وعنصرًا أساسيًا في البناء السردي الواقعي والمُتخيّل، وهي الأداة التي يستطيع الكاتبُ من خلالها أن يُعبر عن أفكاره؛ إذ "هي تُعبِّر عن واقع الفئة الناطقة بها، ونَفْسيّتها، وعَقْليّتها، وطَبْعها، ومُناخها الاجتماعي والتاريخي"[٣٣]، ويمتد هذا التعبيرُ إلى إحساس الأديب بالبيئة والمحيط البيئي، واندماجه في هذا المحيط بكافة مكوناته، وذلك من خلال استخدامه للغة والألفاظ الملائمة للفكر المستوحى من البيئة والطبيعة، والذي يحمل دلالات ومعاني إيكولوجية يتم التعبير عنها باللغة بوصفها وعاءً يشمل الحياة ويستقطب مكوناتها الواقعية، والأدبية المتخيلة.

ومن أهم الدعوات التي تربطُ الأدبَ بالبيئة دعوة هاريسون R.P.Harrison، التي تقرر "أن الكلمة [اللغة] هي التي تفتح مسكن البشر Oikos على الأرض مقدمًا شكلا من الخلاف مع التأكيد الاعتيادي للنقد البيئوي على الطرائق التي تُحيل بها اللغة إلى العالم؛ حيث يقول هاريسون إننا نسكن ليس على الأرض، ولكن في اللغة"(٣٤)، وهي الدعوةُ التي تؤكد الروابط الوطيدة ما بين الأدب من جهة، والبيئة من جهة ثانية بوصف الأدب فعلًا لغويًا، وهذه اللغة تُستخدم وفقا لمنظور النقد البيئي بشكل تطوري، "وعليه فإن اللغة لا تنتمي إلى الجنس البشري، ولكنها تنتمي إلى العالم الحسي الذي نُشكّل فقط جزءًا منه"(٣٥)

وفي السياق ذاته "ولمَّا كان النقد الأدبي البيئي لا يُعالج المشكلات البيئية معالجة علمية، كما هو الشأن في العلوم الطبيعية، فإن النص الأدبي في تعامله مع المشكلة البيئية لا يعكسها انعكاسًا مرآويًّا أو يُقدمها بشكلٍ علمي، إنما يُعيد إنتاجها وفق رؤية الأديب وموقفه من تلك المشكلة البيئية عن طريق اللغة"(٣٦)

وعلى الصعيد التطبيقي يستخدم الفقيه في تشكيل هذه الرواية اللغة الكونية _إذا جازت التسمية وصحت النسبة_، وهي اللغة المشتركة في التعبير ما بين البشري، وغير البشري انطلاقا من رغبة الكاتب إحداث تماهٍ بين الكائنات ومحاولته الجاهدة إدماجها في وحدة كلية جامعة، وإلغاء الفواصل والحدود بينها، ومن ثَمَّ لجأ الكاتبُ إلى بيئة الإنسان، وأنسنة الحيوانات وذلك بالاعتماد على لغة وصفية شمولية تضم تحت لوائها كُلَّ ما هو إنساني، وغير إنساني، وقد استثمر الكاتبُ هذه الآليات في بناء روايته حتى في تلقيب عديد من شخصيات الرواية كعبدالعالي الحطّاب، وعامر بن شيحة ... وغيرهما.

اعتمد أحمد إبراهيم الفقيه المعجمَ البيئي في تشكيل روايته؛ إذ تظهر عناصر البيئة والطبيعة، وتحضر بقوة في الرواية بدايةً من استخدام المعجم اللغوي المخضب بالنكهة البيئية، ومفردات الطبيعة؛ إذ تُشكل اللغةُ وصفًا بيئيا يحتضنه السرد، ويُسهم في تشكيل بنياته.

ولعل من الملامح الفنية المهمة، التي وظفها الكاتب في هذا السياق **ثنائية الجفاف، والخصب** الموازية لثنائية الفقد، والبقاء؛ إذ يبدأ الكاتب في الجزء الأول من الرواية الحديث حولَ جفاف منطقة مزدة ورحيل أهل النجع عنها وتوجههم نحو منطقة جندوبة التي استاءت كائناتُها غير البشرية من قدوم أهل النجع "**زُلزلت الأرض زلزالها، وارتفعت أقدامٌ عملاقة تهوي فوق المدينة الآمنة تدكها دكًا، حتى غاصت في عمق الأرض، ومعها غاصت آلاف الضحايا من النمال التي تسكن هذه المدينة، ونجت أعدادٌ أخرى من الموت، فانطلقت مذعورة في كل اتجاه**"(٣٧)

وعلى نحو متصل تحتشد الرواية بالكثير من أساليب الحوار البيئي، التي يوظفها الكاتب بوصفها إشارات، ورموزا لغوية دالة، ومعبرة حيث جاء اختيار الكاتب للمفردات اللغوية البيئية في الحوار السردي موحيًا، ومعبرا كما في حوار الحاج أبوحمامة والشيخ حامد "**ليتك يا شيخ حامد تستشير لنا النجوم فنعرف ما تدخره لنا الأيام، ونأخذ حذرنا من تقلبات الزمن...**

جاء بقية الرجال ودار الحديث حول العثور على حل لهذه الفئران التي صارت تزاحمهم في مراقدهم وتقرض ملابسهم، وأغطيتهم، ومفارشهم وكان الحلُ هو الاستعانة بالأعداء التاريخيين للفئران، أي الاستعانة بالقطط"(٣٨)

ومن حيث التشكيل اللغوي أيضا تتبدى الرواية تبعا لبوصلة النقد البيئي من خلال ثيمات عديدة، يأتي على رأسها اللون الأخضر أو الاخضرار الذي وُسم به هذا الأدب "**للسنابل الطرية، ذات اللون الأخضر الباهت، الذي خالطته حمرة النضوج وصهد الشمس، مذاق لذيذ لا تكشف عنه إلا النيران. فهي تشوى أولا، ثم تُفرك لتتساقط حبات الشعير ... وقد ظهر لونها الحقيقي، وهو اللون الأخضر، الذي لسعته النار فصار داكن الاخضرار، والذي أعطى لهذه الوجبة الشهية اسمها "المخضور**""(٣٩)

غير أن هذه التيمات لا تعمل بمفردها بل تتقاطع مع عديد من التصورات النظرية العملية والمعرفية الأخرى، ويتم التعبير عنها بلغة جمالية تتسم ببساطة المفردات المعبرة عن البيئة، والبلاغة السردية بداية من دال العنوان مرورا بكافة المكونات البيئية في الرواية التي عبَّر الكاتب عنها بلغة تصويرية واصفة ترسم لنا تفاصيل بواطن الشخصيات وعوالم المكان، وحشد الأحداث، التي تؤكد توافق الشخصيات مع جملة العناصر البيئية والطبيعية وتشبعها بهذه العناصر.

ومن الثنائيات التي تحضر بقوة في رواية فئران بلا جحور أيضا ثنائية البشري، وغير البشري **(الإنسان والحيوان)**، والعلاقة التفاعلية بينهما وفقا لمنظور الإيكولوجيا الحيوانية؛ إذ "كثيرا ما تتشابك المناقشات النقدية للمكان مع رمز الحيوان الذي لعب دورًا مهمًا في حد ذاته في الفكر الإيكولوجي"(٤٠)، وذلك في ضَوء العلاقة الرابطة بينهما وبخاصة النظرة التي تقرر "أن البشر في الأساس من الحيوانات، ويظلون متوحشين Wild في بعض خصائصهم الأساسية...وأن الرغبة في التمييز الأساسي بين البشر والحيوانات هي التي تُشكل التفاوتات الأساسية بين البشر، فبالنظر إلى العديد من أشكال القمع سنجدها تستند ضمنًا على الأقل إلى افتراض أن المضطهدين هم حيوانات وليسوا بشرا"(٤١)، وهي الرؤية التي ينطلق منها الكاتبُ في هذه الرواية، فبدايةً من العنوان أو العتبة الرئيسة يؤشر الكاتبُ خياليا للإنسان بلقب حيوان (فئران)، فالذي يعمل على جمع السنابل وتخزينها في جحور هو الفئران، ولكن الذي يبحث عنها، ويأخذها، ويطعمها هو الإنسان ومن ثم يتحول الحيوان إلى بشر، وذلك بِناءً على تداخل الأعمال في هذه الثنائية، وفي هذا تأكيدٌ من الكاتب على الوحدة الكونية، ووحدة المصير التي تظهر في عديد من مواضع الرواية المدروسة وتتبدى بشكل أوضح في نهايتها مع قدوم السيل **"وانتبهوا في تلك اللحظة إلى الأعداد الهائلة من الجرابيع، التي تتقافز تحت أقدامهم، والتي لحقت بهم، وجرت هاربة من السيل مثلهم، كأن مصيرها ارتبط بمصيرهم.**

جرابيع لا حصرَ لها، جاءت في حشودها الكبيرة تبحث مثلهم عن الأمـــان، وتبكي كما يفعل بعضهم بكاء حزينا مؤلما، إلا أنه يضيع وسط الصخب الهائـــل، الذي يصنعه صراخ الناس وهديل السيل"(٤٢)

ووفقًا لثنائية الإنساني والحيواني يتبادل الكاتبُ الوصفَ بـــين طرفـــي هـــذه الثنائية، فيعمل على تبيئة الإنسان ويُكسبه صفة حيوانية، ويُؤنسن الحيوان ويُعطيه سمة إنسانية، وهو بهذا يهدف إلى تفعيل تيمة التماهي بينهما حتى أن العمة مريومة قد كتبت "**أهزوجة ذات إيقاع سريع، استوحتها من هذه الرحلـــة، تُخاطـــب فيهـــا الجرابيع، شاكرة لها فضلها؛ لأنها حصدت حقول الشعير لحساب أهل النجع، يقول مطلعها :**

كيف حالك يا بو السيقان

إحنا وأنت صرنا جيران"(٤٣)

ومما يُعزز ويؤكد ثنائية الإنساني والحيواني في هذه الرواية لجوء الكاتـــب إلى **تبيئة الموت** وتناوله بوصفه معاناة كونية لكلا الطرفين، أو أنه وعلى حد تعبير الناقد السوري كمال أبي ديب "أشد وجوه الزمنية غورا في الذات الإنسانية، وفـــي علاقة الإنسان بالكون والطبيعة"(٤٤)، وتتمثل هذه التبيئة في عديـــد مـــن مواضـــع الرواية كما في مثل قول الراوي "**المؤلم حقا أن نموت بعيدا عن ديارنا، فوق هذه الأرض التي خذلتنا وخدعتنا. سيكون موتا قاسيا بالتأكيد...فالجائع لا يموت دفعة واحدة، ولا يموت في يوم واحد، إنه يموت على دفعـــات، وخـــلال عـــدة أيـــام، ويستطيع أن يرى الموت"**(٤٥)

ولا تقتصر صناعة الموت على الإنسان بل تُشاركه هذه الصناعة الكائنـــات الأخرى و"**هذا يؤكد أن صناعة الموت ليست احتكارا بشريا، وأن هناك في بيئـــة الحشرات والدواب من هو قادر على ارتكاب جرائم القتل بطريقة أكثـــر فاعليـــة وحسما وإن كان البشر يملكون المصائد والفخاخ والبنادق والمناجل والفئـــوس،**

فهناك من يملك سلاحا أخطر هو السم ... لم يعد الأمر تنافسا من أجل لقمة العيش أو صراعا للحصول على السنابل. لقد أضحى صراع بقاء أو فناء"(٤٦)

وتبرز تيمة الموت في الرواية وتشاكلها مع الحياة وفق ثنائية جدلية من خلال الفيضان أو السيل الذي يُنهي الكاتب روايته به، فإذا كان السيلُ مشتقا من الماء، الذي يعد من أهم الرموز البيئية في الثقافة الإنسانية دلالة على الحياة، والبقاء فإنه قد يحمل وجها آخر فيكون دالا على الموت، والفناء وقد أورد الكاتب هذه التيمة في نهاية الرواية بوجهيها الإيجابي والسلبي الأول كما في مثل قول الراوي متحدثا عن السيل: "**فهو الغيث الذي لا يحلمون عند منامهم إلا به، والذي ظلوا دائما ينتظرونه، ويتطلعون بشوق حارق، ظامئ إلى يوم مجيئه ليُخصب الأرض، ويُنبت الزرع والعشب، ويجلب الخير والرزق، ويرسم ألوان الربيع ويُحيل أيام الضنك والخصاصة إلى عز، وفرح، وشبع**"(٤٧)، لكن هذا الوجه قد يتحول لقوة مميتة تدمر معالم الطبيعة والبيئة وكائناتها وتقتلها كما في مثل قول الراوي: "**وتدافعوا متراجعين مسافة كبيرة إلى الوراء، ووقفوا ظنا منهم أن السيل سيستقر في مساره الجديد، لكنه وقد تمرد على مجراه القديم...لم يعد ممكنا أن يلتزم بأي مسار، فقد فاجأتهم القوة التي واصل بها السيلُ انتشاره خارج الوادي...وصار خوفهم الأكبر الآن على أنفسهم وعيالهم...وليس أمامهم والماء يواصل زحفه...إلا مواصلة الركض هاربين بأعمارهم من الموت**"(٤٨)، وبذلك يكون السيلُ نتيجة حتمية وعاقبة ناتجة عن صراع الكائنات الحية، وهو الصراعُ الذي نجم عنه تدمير الطبيعة والبيئة.

ووفقًا للثنائيات السابقة ينفتح السردُ في فئران بلا جحور على تفاعلات وتماثلات ترابطية لإعادة تشكيل العلاقة بين كافة المكونات والعناصر البيئية، والكاتب وهو بسبيل تشكيل هذه العلاقة يستثمر عددًا من التيمات وعلى رأسها الأنسنة (Humanism هيومانيزم)، ويظهر هذا التفاعلُ والتماثل في مقاربة النص وتحليله عن طريق "تفكيك العلاقات بين البشر والبيئة وإبراز أشكال التجانس

والوحدة بين الإنسان في علاقاته الإحيائية والكونية، كما تركز مبادئ التحليل البيئي على الأنسنة التي نقلت البيئة من كونها عوامل مادية إلى الوحدة الروحيـــة"[٤٩]؛ إذ من خلالها يرتبط عـــددٌ من شخصيات الرواية بالكائنات غير البشـــرية كارتبـــاط الشيخ حامد أبوليلة وعبدالعالي بجمليهما، وارتباط العمة مريومة بكلبها مـــرزوق، الذي أضفى عليه الكاتبُ وعلى كافة الكائنات غير البشرية فـــي الروايـــة صـــفات الإنسانية؛ إذ هي كائناتٌ تحس، وتشعر، وتتحدث "**وبناء على طلب الجمهور، ألقى مرزوق خطبة صغيرة، تدشينا لهذا الحفل، قال فيها أنه يهدي هذا التكريم إلى هذه الحسناء التي كانت سبب نجاحه وانتصاره، وإذا كان المثل يقول بـــأن وراء كـــل كلب عظيم كلبة، فإنه سيضيف بأنها لا بد أن تكون كلبة جميلة، مثيرة، نبيلة كهذه الكاعب**"[٥٠]

ومن قبيل أنسنة الكائنات غير البشرية راح الكاتب يُطلق أسماء البشر علـــى الحيوانات، ويعد هذا ملمحا واضحا من ملامح ارتباط الإنسان بالبيئة المحيطة به، وتعلقه بما يرمز له كما في مثل تسمية الكلب مرزوق، وما يُحيل إليه هذا الحيوان من دلالات الوفاء، والإخلاص الذي ينبغي أن يكون متوافرًا بين الطرفين "_ **هـــل سمعتم أن كلبا من قريتنا أكل في حياته هبرة من اللحم؟ هذا ما حدث منذ قليـــل، فقد رأيت بنفسي العمة مريومة تتقاسم اللحم مع كلبها مـــرزوق، تأكـــل قطعـــة وتُعطيه قطعة. أتصدقون ؟**"[٥١]

وإذا كان الكاتبُ قد أنسن هذه الكائنات غير البشـــرية، وأكســـبها مســـميات بشرية، وسمات إنسانية؛ حيث تتجلى أنسنة الحيوانات في مقاطع ومتواليات سردية كثيرة من الرواية، فإنه قد أنسن الموجودات والعناصر الطبيعية والبيئية أيضًا كمـــا في مثـــل أنسنته للشمس "**هذه الملكة المتوجة التي لها وحدها حقُ السيادة علـــى هذه البطاح والدروب والسهوب والسهول والمسارب والأخاديد والأودية ... تُعذب من تشاء وترحم من تشاء، تقسو وتحنو، تشتد وتلين، تدنو وتبتعد، حسبما يشاء لها المزاج، ومقتضيات الرحلة الطويلة من حافة الأفق شرقا إلى حافته غربا**"[٥٢]

وضمن التشكيل اللغوي البيئي يحضر التقويمُ البيئيُّ أو الدورة البيئية في عديد من مواضع الرواية المدروسة؛ حيث إن للبيئة دورات، وسنة حياة تُشبه إلى حد كبير حياة الإنسان "**عرف الشيخ حامد براري جندوبة منذ أن كان طفلًا، جاءها صحبة والده في عام من أعوام الجفاف التي عرفتها مزدة، وهي أعوامٌ تأتي في دورات ومواسم، تتباعد أحيانا وتتقارب أحيانا أخرى، ولكنها لا بد أن تأتي ليكون الملاذ دائما جندوبة أرض الخصب التي لا يصيبها الجفاف أبدا**"(٥٣)

يظهر التمثيلُ البيئيُّ في الرواية أيضًا من خلال الجوانب الحياتية، والمعيشية، التي تُنبئ عن معرفة الشخصيات التي أنطقها الكاتبُ ببيئتهم الصحراوية، وبالكائنات الحية والجامدة في هذه البيئة كما في مثل قول الراوي: "**لن تجد الكلاب عناء في الحصول على طعامها، فهناك في هذا الخلاء من الحشرات والعظام القديمة ما يُقيم أودها وستجد الإبل في هشيم الحصاد ونباتات الرتم والقازول والقيصوم ما تأكله، وستجد الحمير في أكوام القش والتبن ما تطعم به نفسها بمثل ما وجدت الطعام في هذه الأرض الذئاب، والثعالب والفئران والخنافس، ومماليك النمل وأسراب الطيور، ولكن ماذا عنهم هم ؟**"(٥٤)، ومن هذه المعرفة تتبدى خبرتُهم بطبيعة الكائنات التي تعيش معهم في هذه البيئة وكيفية التعامل معها حتى في أكثر الحالات ضررًا وخطورة كما في واقعة لدغ الأفعى لفاطمة زوجة عبدالعالي "**أحس الفقي برهان بخوف حقيقي على حياة هذه المرأة، عندما وجد أنها أفعى من ذات القرون، التي تنفث أقوى أنواع السموم، وكان لا بد أن يعمل بسرعة لإسعاف المريضة، قبل أن يسري السم القاتل مع دورة الدم في جسمها**"(٥٥)

وبالإضافة إلى ما سبق توجد في الرواية الطقوس، والعادات المعروفة عن البيئة الصحراوية، والمتماشية مع طبيعة هذه البيئة، وقد قدَّم لنا الكاتبُ في هذا السياق وعيًا متميزًا، وذلك عبر توظيف عديد من هذه الطقوس، والعادات كما في توظيفه لطقس الأفراح في مثل قوله: "**وكما يحدث أثناء الأعراس، فقد جلس**

الرجال في طرف، يفترشون الرمال، ويكونون نصف حلقة، ونصف الحلقة الثاني من الأطفال والنساء، وفي وسط الحلقة جلس الروماني وانضم إليه عددٌ من أترابه، جاءوا بقصعة يضربونها بالعصي، فتصنع إيقاعا يُصاحب عزف المقرونة"[٥٦]، ومن هذه العادات، والطقوس أيضا ذبح الجمال[٥٧]، وعادات الحصاد[٥٨]، والتطيين[٥٩]، والحجالة، والكشك[٦٠]،... وغيرها.

تأسيسًا على ما سبق يؤكد الكاتبُ في هذه الرواية الوحدة الكونية، ووحدة المصير انطلاقا من العلاقة التلازمية بين مصير الإنسان ذاته، ومصير الطبيعة أو البيئة المحيطة به، ولعل الوعي بالمكان وخصوصيته من أوائل الأدلة على هذه الوحدة، وهذا المصير.

خصوصية المكان والحس المكاني :

تُعَدُّ العنايةُ بالمكان من العناصر الرئيسة في المقاربة الإيكولوجية؛ إذ إن الوعي بالمكان بوصفه بنية معرفية ونصية هو بدايةُ المعرفة، كما أن الحس المكاني، الذي يعني في هذا السياق "الربط والاستجابة وردَّة الفعل تجاه مكانٍ ما"[٦١] يُعَدُّ جزءًا مهمًا من الوعي البيئي انطلاقًا من قدرة المكان الخاصة على تجلية كافة الظواهر الحسية، وغير الحسية، وهو ما حدا بالمكان إلى أن يدخل حيزَ الدراسات البينية؛ إذ إنه غير مستقل بذاته أو مكتف بنفسه.

وعلى صعيد متصل فإن ارتباط الشخصية بالمكان يعد ارتباطا جذريا من حيث الوراثة والنشأة، ومن ثم يغدو التمسك بالمكان تمسكا بالحياة وأسبابها، وليس مجرد تيمة موضوعاتية محايدة، بل بوصفه يحمل قيمة فنية وجمالية؛ إذ يتخذ المكانُ ملامحَه في العمل وأوصافه عبر الخيال الأدبي، انطلاقًا من ارتباطه الوطيد بخيال الكاتب، وهو الأمرُ الذي يجعله من أكثر العناصر السردية أدبية من جهة، وتناولًا بالدرس والبحث من جهة ثانية.

يهتم النقدُ البيئي إذًا بالمكان وبموضوعته وذلك عن طريق الإحساس القوي به، وهذا الإحساسُ يتخلق عند الأديب من خلال التقارب بين المكانيين: الطبيعي،

والفني فتوظيف المكان فنيًا لا يتم بمعزل عن السياق الطبيعي (المنظومة الإيكولوجية) الذي يتموضع أو يتجسد فيه، ومن ثَـمَّ فقد "ظهر النقدُ البيئي للتأكيد على أهمية المكان والطبيعة والبيئة ... وذلك ضمن منظور نقدي إيكولوجي معاصر، بعد أن انتشر التلوثُ والأمراض المعدية في المجتمعات الصناعية المتقدمة وغير المتقدمة، وأصبحت الحياة الإنسانية (وغير الإنسانية) مهددة بشكل كبير"(٦٢)

وعلى الصعيد الإجرائي والتطبيقي يعمد الباحثون في النقد البيئي إلى فحص المكان ودراسته بشكل حيوي دينامكي Dinamic، غير استاتيكي انطلاقًا من أن "الجغرافيا المكانية هنا لها قواعدُها وخلفياتُها في الذهن البشري...إن استدعاءها من المثير الخارجي هو الذي يرهص الإنسان على تأطيرها على نحو فني وجمالي ويذهب بها من الحقيقة الفيزيائية للواقع الأدبي"(٦٣)، ويأتي ذلك في ضَوء العلاقة الجدلية بين المكان والشخصية؛ إذ تتحقق الشخصياتُ والأحداثُ في النص الأدبي بمقدار ارتباطها بالمكان وعلاقتها بالبيئة المكانية، التي تؤطرها تاريخيًا، ونفسيًا، واجتماعيًا كما في الرواية المدروسة؛ إذ يظهر ارتباطُ أهل النجع بالمكان (وادي جندوبة)، والعوامل الطبيعية المحيطة به، وامتزاجهم بمعالمه، وصفاته كما في وصف الراوي له بأنه مكانٌ "**قريب من مجرى الوادي الخصيب وما يضمه من حقول الشعير**"(٦٤)

إن جندوبة تُمثل في الرواية المكان المبارك، وهي بالنسبة لأهل النجع الملاذ من الجوع ومن ثم "**بدأت القافلة تضع رحالها وأحمالها في المكان الذي اختاره الشيخ حامد أبوليلة شيخ القافلة، الذي سبق أن جاء إلى هذه المناطق والذي رأى، توفيرًا للوقت والجهد أن يتجه بأهله وصحبه إلى ذات المكان الذي أقام به في الماضي، قريبًا من مجرى الوادي الخصيب وما يضمه من حقول الشعير حيث يأمل أن يجد لأهله مصدرا للرزق**"(٦٥)

ومنذ استقرار القافلة بأهل النجع تبدأ علاقة الانسجام والتناغم، التي تربط هذه القافلة في رحلة بحثها عن الرزق والطعام بالمكان (جندوبة)، إلا أن هذا الانسجام

لم يدم طويلا فسرعان ما حدثت الصدمة فحقول جندوبة "**حقول عقيمة، أنبتت زرعا بلا سنابل**"(٦٦)، وفي موضع آخر يُقرر أحد رجال القاقلة صدمته النفسية من التحولات، التي حدثت للمكان، فيقول: "**كنا نسميها جندوبة أرض الخير والبركة، فأضحت اليوم جندوبة المنكوبة**"(٦٧)

وعن إحساس الكاتب بالمكان في هذه الرواية فإنه يُقدّم لنا مكانين بإحساسين مختلفين الأول هو مزدة، وهو المكان الذي هاجر منه أهل النجع هربا من الجوع، والثاني جندوبة وهو المكان الذي هاجر إليه أهل النجع طمعا في الحصول على طعام، ورغم أن المكان الأول هو مكان النشأة والمولد إلا أنه يُعطي تدليلا سلبيا بخلاف المكان الثاني، الذي يقدم البرنامج السردي عنه دلالات إيجابية ويضع له بعدا تاريخيا يمتد لتاريخ الأجداد والآباء "**ولهذا السبب اختار أبي أن يأتي إليها عندما ذهب الآخرون إلى سوف الجين؛ لأنه يؤمن بأنها أرض خيرات كما قال والده ... إنه يذكر كيف بدت جندوبة في المرة السابقة بحقولها التي تمتد إلى ما لا نهاية مثقلة بالسنابل الناضجة التي تبحث عن أياد تحصدها وتأخذ أجرا كريما وافيا**"(٦٨)، ومن ثم تحضر ذاكرة المكان التاريخية، وتظهر لنا نوستالجيا Nostalgia الذاكرة، وذلك عن طريق استحضار ذكريات ماضوية يحن الكاتبُ إليها، ويربط هذه الذكريات بالعلائق الطبيعية والبيئية، وذلك عن طريق الخيال البيئي الذي ينسجم مع المكان ويتوافق معه، وهذا التوافقُ ينسحب على الكائنات كلها كما في حديث الكاتب عن الحرباء "**ليس للحرباء وجه واحد، فهي تظهر في اليوم الواحد بعشرات الوجوه، وليس للحرباء لون واحد، فهي تتلون بلون المكان الذي يضمها حتى تُصبح جزءًا منه**"(٦٩)

مما سبق يتضح أن الانتماء للمكان يأتي لارتباطه بالحياة والرزق، ويتمثل هذا العنصرُ في محاولة الاستجابة والتفاعل الحيوي معه بوصفه محيطا للتفاعلات البيئية فهي رواية تتخذ من البيئة والطبيعة الصحراوية الليبية منطلقا فنيا وسرديا

للبحث عما يسد الجوع ويحمي الذوات والكائنات مما يُهددها من خطر التلاشـــي، والفناء.

وعن تأثير البيئة المكانية في سلوك الشخصيات وعاداتهم يتحدث الفقيه فـــي عديد من صفحات الرواية عن هذا التأثير كما في الاختلاف القائم بين نساء النجع، ونساء آل جبريل، وهو الاختلافُ الذي أرجعه الكاتبُ لتأثير البيئة المكانية "**فقد جاء ذكر هذه المجالس التي يقيمها الرجال على حدة والنساء على حدة، وقالت إحداهن بأن هذا الشيء لم يكن موجودًا في البيئة التي نشأن وتربين فيها، عنـــدما كـــن يعشن متنقلات مع عائلاتهن بين واحات المناطق الواقعـــة علـــى خـــط الحـــدود المصرية الليبية، والتي هجَّ الناسُ إليها خلال سنوات الحرب بحثًا عن الرزق**"(٧٠)

البيئة الحيوية ومركزية الإنسان :

تنهض الفلسفةُ الإيكولوجية في جوهرها على مبـــدأ التعـــدد البيولـــوجي أو المذهب الطبيعي المجرد، والمُصنِف للكائنات البيئية إلى ثلاثة أقســـام: الإنســـان، والحيوان، والنبات وبحث العلاقة المتداخلة بينهم، وهي العلاقةُ التي قصرتها الفلسفة الكلاسيكية قديمًا على المنظور النفعي للإنسان وحسب، الأمر الذي أدى إلى بروز أنانيته، وفرض هيمنته على كافة الموارد الطبيعية والبيئية بوصفها مخزوناً دائمًا لا ينفـــد.

ومع مرور الوقت وتصاعد الأزمات البيئية كالتلوث البيئي، والتغيُّر المناخي، ونفاد الموارد الطبيعية وندرة المياه ... وغيرها بدأ الإنسانُ يشعر بقـــوة الطبيعـــة وسيطرتها، وأن عليه أن ينتبه إلى وجود كائنات أخرى تعيش معه وتشاركه الحياة الطبيعية فلم يعد وحده المتحكم النفعي، والقيمي.

وعلى صعيد البحث في الفلسفة البيئية تنامى الوعيُّ بأن الإنسان إنما هو جزءٌ من أجزاء النظام البيئي وليس النظام كله، ولا ينبغي أن يكون كل ما عداه خاضعا له وبخاصة عندما يفتقد الإنسان للقيم الأخلاقية، فيستغل الموارد الطبيعية والبيئيـــة من حوله استغلالا سيئًا.

ونتيجة لفقدان الإنسان للوعي، والقيمة تم تفادي تقييم البيئة بالاعتماد على الإنسان وحده؛ إذ بدأ حضور الكائنات الأخرى؛ حيث لا وجود للإنسان في البيئة دون عناصرها الأخرى، وهو الأمرُ الذي تنبَّه له الفيلسوفُ الأمريكي هولمز رولستون الثالث Holmes Rolston III حينما قال: "لم يعرف البشر كثيرًا عن سلسلة الوجود العظمى، وبالتالي كان تقييمهم لها ضئيلا، ولهذا أصبحت الأزمة الإيكولوجية كبيرة؛ حيث إن التقليل من قيمة الطبيعة والتضخيم من قيمة الإنسان يُشبه تداول الأعمال بعملة مزيفة، وهذا يؤدي بالطبع إلى رؤية احتكارية تُسبب خللا وظيفيا في العالم يؤدي إلى عدم التكيف مع الطبيعة"(٧١)

لقد وجد النقدُ البيئيُّ في البحث عن علاقات الإنسان بمحيطه الحيوي محضنا مهما لدراسة تفاعل الإنسان مع الأنواع الأخرى وتعايشه معها، فالإيكولوجيا في دراستها العلاقات بين الإنسان ومحيطه تتوزع ضمن "مستويات ثلاثة، وهي: المستوى المادي (العناصر المادية في الطبيعة)، والمستوى الحسي (الكائنات الحية)، ومستوى الإنسان"(٧٢) وعلاقته بالكائنات الأخرى.

وانطلاقًا من المستوى الأخير تحضر العناصرُ البيولوجية الأخرى في الرواية المدروسة، وتُسهم هذه العناصرُ في طرح عديد من السمات، والخصائص لكل عنصر وكذلك جملة من الموضوعات والقضايا، لعل أهمها العدالة والمساواة بين الكائنات الحية، ومركزية الإنسان، والتشارك Participatory بين الإنسان والكائنات الأخرى؛ إذ "تدخل المهتمون بالبيئة والطبيعة، مستغلين هذه الخلخلة للمناداة بضرورة الاعتراف بأن هذا الكون بكل ما فيه، ليس ملكًا للإنسان وحده، وإنه من غير الممكن أن يظل سادرًا في ادعائه بأنه سيد الكائنات، بل إن هذه الكائنات إنما تُقاسمه الحياة، وتشترك معه فيما تقدمه الطبيعة من خير وحرية، ومن ثم فهو مدعو إلى حتمية التخفيف من غلواء نزعة السيطرة عليها"(٧٣)

وعلى الصعيد الإجرائي تطرح الرواية موضوعًا مهمًا هو مركزية الإنسان في الوجود، وصراعه مع الكائنات والموجودات البيئية الأخرى التي تشاركه العيش

والحياة؛ إذ يُنبئ السرد الروائي في فئران بلا جحور عن عدم شعور الكائنات غير البشرية بالسكينة والطمأنينة تجاه البشر، وبهذا تُظهر الرواية الإنسان بوصفه مركزيا واستهلاكيا وجائرا على حقوق الكائنات الأخرى، التي أنطقها الكاتبُ في عديد من مواضع الرواية كما في مثل قوله على لسانها: "**البني آدم كائنٌ يتحدى الطبيعة؛ لأن الله عندما خلقه وهب جزءا منه لإبليس. الكائنات الأخرى جزءٌ من الطبيعة تعيش تحت أوامرها، وتستجيب لندائها، بينما يضع الإنسان نفسه فوق الطبيعة، ويصنع أبشع الأدوات لمحاربتها**"(٧٤)

تتمثل المركزية الإنسانية في الرواية في شقها السلبي من خلال ما يُحدثه الإنسان من تغييرات بيئية ملحوظة، وما يُنشئه من مواد غريبة على النظام البيئي، ومن ثم يغدو هذا التصرف الإنساني إخلالا بهذا النظام كما في صناعة الإنسان لمبيد الحشرات لقتل الكائنات غير البشرية "**وفور وصوله، ذهب بهذا الاختراع إلى الشيخ حامد، يعرضه عليه ويريه كيفية استخدامه، فهو آلة رش صغيرة، تنثر مادة سائلة ظنها الشيخُ غازا؛ لأن لها رائحة الغاز، إلا أن الفقي برهان أفهمه أنها مبيدٌ للحشرات، وقام برشها على سرب من النمل، فتجمد ميتا في مكانه ...**

وكان أول سؤال سأله الشيخ هو :

_ هل أنت واثق من أنه لا يقتل البشر ؟

_ إن العلماء لم يصنعوه إلا لحماية البشر."(٧٥)

وإذا نظرنا إلى المركزية الإنسانية في الرواية وموقف الكاتب من الكائنات الأخرى غير البشرية (الفئران والجرابيع وغيرها)، نجده يُظهرها وفق مستوى أعلى من حيث الدراية، فهي تعمل، وتُنظم عملَها بطريقة مثالية ومتقنة كما في جمعها للسنابل وترتيبها "**لم يُخيب الشيخُ رجاءهم، فقد بدأ انزياح التراب يُسفر تدريجيا عن مشهد السنابل النائمة في جحر الفأر، الموضوعة بترتيب ونظام، كأن يد إنسان حاذق، ماهر حصدتها برفق وأناة، ثم أجادت بعد ذلك صفها وتنسيقها بكل هذه الدقة والأناقة والجمال**"(٧٦)

لقد كرّس الكاتبُ في هذه الرواية المحيطَ البيئي والجغرافي للعناية بالكائنات غير البشرية، وحاول استكشاف المجال الحيوي غير البشري ومدى قوة هذه الكائنات، وأبدع في تقديم موازنة بين الأعمال البشرية، وأعمال الكائنات الأخرى وذلك من منظور الفينومينولوجيا البيئية، ووفقا لمبدأ تعدد الأصوات polyphony في المجتمع البيئي، وذلك في امتزاج وجودي وظاهراتي حسي واضح، وجلي.

والأمر نفسه يتبدى في عناية الكاتب بالمكون العلمي الحيوي ووفرة هذا المكون وسعته من خلال تبحر الكاتب في طرح كل ما يخص الكائنات الحية، وتقديم وصف تفصيلي لها كما في حديثه عن الوسائل الدفاعية ضد البشر لدى الكائنات غير البشرية، وذلك على لسان الضب "**فقد خلق الله لبعض هذه المخلوقات قرونا وحوافر، وخلق لبعضها الآخر براثن وأنيابا، وخلق لغيرها أظافر ومخالب وزود حشرات صغيرة ضئيلة بإبر تلسع وتلدغ**"(٧٧)

ورغم أن الكاتب يُقدّم في روايته آراء ومعلومات علمية عن هذه الكائنات فإنه حتما يُشكّل هذه العلمية ويُطعمها بالخيال واللغة الأدبية كما في مثل حديثه عن الحرباء "**فقد شاهد الجميع الحرباء تهبط من شجرة الأثل الكبيرة، التي تتخذها مكانا لإقامتها بين الزرازير والحساسين وطيور أبي بشير والأعلام الخضراء، وتمشي بخطو متمهل وقور باتجاه الحقول حتى تصل إلى ضفة الوادي ... وكان سبب الاستغراب هو أن الحرباء ظلت طوال عمرها لا تغادر شجرة الأثل تلك ... التي تقول الرواياتُ المتواترة بأنها أقدم أشجار جندوبة، وأطولها عمرًا، موئلا ومستقرا، وهيأت نفسها على مواصلة العيش فيها**"(٧٨)

وأخيرًا فقد ركز الكاتبُ في روايته على إبطال مبدأ المركزية البشرية أو مركزة الإنسان وسيطرته على الطبيعة والبيئة من حوله، وهذا الأمرُ يتبدى من خلال محاولته ترسيخ مبدأ المساواة بين الكائنات الحية، وذلك عبر أنسنتها أو روحنتها _ كما تَقدَّم _، وبخاصة أن هذه الرواية ليست الأولى للكاتب في نقض هذه المركزية بل إن له متتاليتين قصصيتين تؤشران لانحياز واضح لدحض

المركزية الإنسانية، ودعم الكائنات الأخرى غير البشرية أو غير الإنسانية والقول بأحقيتها في مشاركة الإنسان المحيط الطبيعي والبيئي، وهما "في هجاء البشر ومدح البهائم والحشرات"، و"الانتماء لأشجار النخيل".

النقد البيئي الجذري (الإيكولوجيا الجذرية):

تتمحور الفلسفة البيئية وفقا للإطار الإجرائي والتطبيقي حول ثلاثة عناصر رئيسة، هي: **الأخلاق البيئية، والتوازن البيئي، والإصلاحية المركزية البشرية،** التي ينبثق عنها عددٌ من الاتجاهات، لعل أهمها: النسوية البيئية أو الإيكولوجيا النسوية.

يُعَدُّ الفيلسوف النرويجي أرني نايس Arne Naesss (١٩١٢ : ٢٠٠٩م) أولَ من استخدم مصطلح الإيكولوجيا الجذرية عام ١٩٧٢م، بوصفها حركة علمية تنهض على ترابط النظام الحياتي، وعدم الخضوع للهيمنة أو السلطة الإنسانية أو البشرية، وقد صاغ هذا المصطلح في بحث له بعنوان "الضحل والعميق: حركات الإيكولوجيا بعيدة المدى"(٧٩)

وعن وصف هذا النقد بالجذرية، وتبرير هذا الوصف من الناحية العلمية والمنهجية يُصنف "الفلاسفة الإيكولوجيون الجذريون أنفسهم جذريين لسببين :

١_ لأنهم يزعمون أن تحليلاتهم تكشف عن الأصول الثقافية والسياسية والاجتماعية والمفهومية والموقفية للأزمة البيئية.

٢_ لأنهم يحاجون بأنه فقط ثورة، أو انزياح ثقافي في النموذج الإرشادي يمكن أن ينقذ كوكب الأرض من الخراب البيئي"(٨٠)

أما عن سمات الإيكولوجيا الجذرية فإنها تتسم بتعددية المرتكزات الإجرائية، وتنوع وجهات النظر والمعالجة؛ حيث إنها تفيد من عديد من النظريات، والمناهج، والدراسات وعلى رأسها الدراسات الثقافية Cultural Studies، وبشكل خاص النقد الثقافي Cultural Criticism، ونظرية ما بعد الاستعمار Post Colonialism؛ إذ تشترك الإيكولوجيا الجذرية مع النقد الثقافي في أن كلاهما

يسعى لفهم النص، ويرمي لمكاشفة علاقاته، وما ينطوي عليه من مضمرات عميقة ومبادئ ثاوية غير أن النقد البيئي يتميز عن النقد الثقافي بشمولية طرحه المعرفي والعلمي؛ إذ يمتد البحثُ في النقد البيئي من دراسة الأنساق السياسية، والاجتماعية، والدينية إلى البحث في علوم الأحياء، والكون فهو نقد ليس مصمتا أو محددا بتناول الطبيعة والبيئة وحسب بل تمتد اختصاصاته ومجالاته لتناول الحياة والواقع بوجه عام وشمولي، وذلك انطلاقا من العلاقات الترابطية الواسعة بين النقد البيئي والثقافة المادية، وغير المادية.

ويتشكل موقفُ الأديب من البيئة في النص وفقًا للمنحى الثقافي، الذي يُعَدُّ مسئولًا عن تحديد العلاقة ما بين الإنسان والبيئة وتفرع الوجهة البحثية في هذا السياق بين البيئة والثقافة التي تتنزل في هذه الرواية المدروسة بشكل واضح وجلي؛ إذ يسجّل لنا الكاتبُ سيرة ذاتية للمكان والأشخاص المتواجدين، ويُقدّم لنا في هذا العمل ميراثا للثقافة القَبَليّة بداية من صورة غِلاف الرواية؛ إذ تظهر على الغلاف صورة امرأة ترتدي ملابس تحمل الطابع البدوي وتتقلد حُليا يدل وفقا لمكونات المظهر الخارجي على الثقافة البدوية الليبية، ويتبدى التمثيل الثقافي في الرواية أيضًا عبر تطعيم الكاتب لمتن هذه الرواية بعدد من الصور والرسوم، التي تأخذ صفحات كاملة في الرواية ومن أكثر هذه الصور تأتي صورُ الأشجار، التي استحوذت على أغلب الصور والرسوم الواردة في الرواية المدروسة كما في الصفحات : ١٣، ٨٧، ١٠٧، ١٩٧.

أما عن ارتباط النقد البيئي بما بعد الاستعمار فقد تمثل هذا الارتباط في هذه الرواية على نحو تطبيقي، بداية من أن الأرضَ الذي تقع عليها الأحداثُ تُعَدُّ ضمن الدول التي استُعمرت، وقد خلّف هذا الاستعمارُ دمارًا وتخريبًا امتدتْ آثارُه لما بعد رحيل المستعمر، وهذه الآثارُ ليست قاصرة على البشر بل امتدت لكافة الكائنات الحية والمكونات والعناصر البيئية الأخرى، وهي عناصرٌ _لا شك_ مترابطة تتأثر ببعضها البعض، وتُؤثر في بعضها البعض.

إن رواية فئران بلا جحور فضاءٌ سردي، تطبيقي مهم لأدب ما بعد الاستعمار Post colonialism إذ ينبّه النقد البيئي في هذا السياق على الأرض _بوصفها أهم معلم بيئي_، وقد كانت ميداناً للاستغلال والتدمير والتخريب؛ حيث يُعَدُّ ما بعد الاستعمار شاهدًا على التدمير البيئي، ورغم رحيل المستعمِر فإن الأرضَ تبقى شاهدة على الآثار التي يُخلفها للمستعمَر وربط هذه الآثار بالتغيُّرات والأزمات البيئية التي نزلت بالمكان والتحولات التي أصابته بعد ذلك؛ إذ تُقدم الرواية في عديد من صفحاتها سردًا واضحًا ومباشرًا عن هذه الآثار السلبية، التي خلَّفها الاحتلالُ أو كما يُطلقون عليه الاستعمار(*) الإيطالي، وأثر هذه المخلفات الواضح على البيئة، التي تحولت من بيئة طبيعية نقية إلى بيئة ضارة تهدد حياة الكائنات، التي تعيش فيها وعلى رأسها الإنسان "**حتى لو رضينا بالبحث في هذه الأكوام، فهل تظن أن الناس الذين ذهبوا يفجرون حقول الألغام لبيعها حديدا فعلوا ذلك ...**

_ هناك ثلاث عقبات، أولها أنها بعيدة ونحن لن نقوى على الوصول إليها دون زاد، والثانية أنها تحتاج لخبرة لا نملكها ولا نملك وقتا لتعلمها، والثالثة أنه ما دخلها أحدٌ، إلا وعاد بساق أو ذراع مقطوع، هذا إذا نجا من الموت أصلًا"(٨١)

بِناءً على التمثيل السردي السابق يُقَدِّم الفقيه في عمله موضوعًا روائيًا مفاده الأسى لما حل بالأرض الليبية من تخريب، وتشويه بيئي، والفخر لما سطَّره الليبيون من بطولات لمواجهة المستعمر "**كما هو الحال مع الحاج أبوحمامة...فقد انخرط في معارك الجهاد، يخرج من مزدة ولا يعود إليها إلا في أيام الهدنة، إلى أن تنبه الإيطاليون لنشاطاته المعادية لهم، فصادروا ممتلكاته، وحكموا عليه بالإعدام فهرب متنكرا إلى أقصى واحات الجنوب، وعاش هناك بهوية جديدة، وتزوج امرأة سمراء من نساء فزان، ولم يعد إلى مزدة إلا بعد انتهاء الحرب وخروج الطليان. عاد بطلًا من أبطال الجهاد**"(٨٢)

وعن طريق تحليل خطاب ما بعد الاستعمار في الرواية نجده يُظهر رمزية التعبير عن الواقع البيئي من خلال تجاوز الجانب الفني والجمالي والولوج إلى دوائر المعرفة التاريخية، التي تُحدد النسق الثقافي المضمر، وتكشف الأزمة البيئية مثلما جاء على لسان الشيخ حامد بقوله: "**أكره أن ينتهي بنا الحال إلى قطع الأشجار، ولكن المضطر يركب الصعب، هذا ما فعله أناسٌ آخرون بأودية أخرى عامرة بالأشجار غير المثمرة عندما أحالوا أشجارَها إلى فحم، سنفعل نحن مثلهم**"(٨٣)

لقد كره الكاتبُ على لسان الشيخ حامد ومن معه قطع هذه الأشجار، ورغم ذلك يمارسون هذا الفعل نظرا للحال التي آلت إليها البلادُ فترة ما بعد الاستعمار "**إنهم يقترفون إثما كبيرًا بذبح هذه الأشجار التي تفيأ تحتها أسلافُهم، وكانت مقيلا لهم وعلفا لحيواناتهم، ولكن قتل هذه الأشجار أصبح الآن مسألة وقت فقط، لأنهم لو لم يقطعوها هم، فسيأتي أناس جياع من مناطق أخرى يقطعونها**"(٨٤)

تأسيسا على ما سبق تتبدى ملامح ما بعد الاستعمار وسيرورتها في البيئة المكانية وتأثيرها في الأرض، وقد رصدت الرواية كثيرًا من الحوادث التاريخية للتدليل على ما يُخلفه الاستعمارُ من تدمير بيئي، وما يُؤشر إليه هذا الرصدُ من دعوة الكاتب إلى ضرورة إحلال الديمقراطية والعدالة بديلًا عن السيطرة والنزعة الاستعمارية أو الاستغلالية.

العدالة البيئية Environmental gustice :

يُعَدُّ مصطلحُ العدالة البيئية من المصطلحات المعاصرة التي نجمت عن تنامي الانتهاكات البيئية، التي زادت وتيرتُها مؤخرًا وأسهم الإنسانُ فيها بشكل كبير، وهو مصطلحٌ شمولي لا يقتصر على العناية بالأشجار، والنباتات والحيوانات وإنما يمتد للحديث عن كافة الحقوق على الأرض، وقد وصفه الشاعرُ وعالم الطبيعة الألماني يوهان غوته G.W.V.Goethe (١٧٤٩ : ١٨٣٢م) بأنه "روحٌ واحدة تسري في الأرض"(٨٥)

وعلى الصعيد التطبيقي يُسلط الكاتبُ الضَوءَ على حقوق الكائنات البشرية وغير البشرية، ومن الحق الأول يأتي صراعُ أهل النجع، وآل جبريل؛ إذ يطرح البرنامجُ السرديُّ في الرواية سؤالا مفاداه :

أليس لأبناء جبريل الحق في البقاء على قيد الحياة مثل أهل النجع ؟

وهذا السؤالُ يستشفه الباحثُ ويصوغه من خلال البرنامج السردي، الذي يطرحه الكاتبُ انطلاقا من ممارسات أهل النجع وتكتمهم على أمر السنابل، التي في جحور الفئران ورغبتهم عدم مشاركة آل جبريل لهم.

أما الكائناتُ غير البشرية فيأتي حديثُ البرنامج السردي عنها صراحة وبتعبيرات مباشرة وواضحة عن فقدان العدالة البيئية في ظل وجود الإنسان، وما يمارسه من سلطة وهيمنة على الطبيعة والبيئة من حوله ومن ذلك مأساة الجرابيع، وواحد منها على سبيل التمثيل يحكي مأساته مع الإنسان وانتهاكاته المتكررة "**فقد كان هو وعائلته _كما يقول الراوي_ أولى ضحايا الانتهاكات البشرية لحرمات البيوت التي يملكها ويقطنها شعبُ الفئران. ومما جعل مأساته أكثر ألمًا للجميع أنه بدأ منذ أمد قريب في تكوين أسرة جديدة، ولديه ولدان في سن الرضاعة، فجاءت ضربات فئوس ومناجل البشر تهدم بيته، وترمي به إلى العراء مشردًا، بلا مأوى ولا رزق ولا كرامة، ولم يشفع لدى هؤلاء البشر منظر الصغيرين وهما يبكيان في هلع ورعب**"(٨٦)

إن حديث الحيوانات المتكرر في هذه الرواية عن فقدان العدالة البيئية أمام سلطة الإنسان ومركزيته لهو أمر جوهري يقع على رأس اهتمامات النقد البيئي ويتمثل بوضوح في الرواية محل الدراسة، وبهذا تكون الكائنات غير البشرية تمثيلات واقعية تبحث جديا عن حلول لأزمة بيئية ملحة كما ورد على لسان السارد "**تعرف الجرابيع أن التحدي كبيرٌ جدا، وأن الفرق شاسعٌ بينها وبين هذا الكائن العملاق الذي يمشي فوق الأرض فيزلزلها، ويستعمل أدوات قادرة على الهدم والتخريب لا تقوى هي على مواجهتها أو أخذ حقها**"(٨٧)

وفي السياق ذاته تحتشد الرواية بالكثير من الاقتباسات، التي ينبذ الكاتبُ فيها ثقافة التسلط والاستعلاء البشري تجاه الكائنات الأخرى، ومدى تسلط بعض البشر وقسوتهم على هذه الكائنات وهي أمورٌ تُعَدُّ من صميم اهتمامات الفلسفة البيئية وبخاصة من منظور العدالة، والأخلاق البيئية.

الأخلاق البيئية (الإيطيقا الإيكولوجية) Environmental Ethics :

عملتْ الفلسفةُ اليونانية منذ نشأتها وبنزعتها العقلية والطبيعية على مبدأ تسلط الكائنات البشرية على غيرها من الكائنات؛ إذ تنهض فلسفة أفلاطون Aplatons (٤٢٧ : ٣٤٧ ق.م)، ومن بعده أرسطو **Aristotle** (٣٨٤ : ٣٢٢ ق.م) على فكرة الاستعلاء والتسلط البشري على الأرض ومواردها، وهو ما مهَّد لبروز عددٍ من الثنائيات المتضادة التي تسعى للتأكيد على تميز العقلية الغربية ومحاولتها السيطرة على كافة ما يُحيط بها من كائنات بشرية وطبيعية وهو ما بات يُعرف بالفوقية البشرية أو المركزية الإنسانية Human Centrality أو الإيكولوجيا الضحلة، وذلك بخلاف الفلسفة الإغريقية التراتبية، التي دعت إلى تقويض خطاب الثنائيات المركزية المتضادة وتفعيل مبدأ التكافؤ والمساواة بين الكائنات وهو ما بات معروفًا في الفلسفة البيئية بالمركزية الحيوية، التي تمت الاستعاضة بها عن المركزية البشرية، والتفوق البشري.

وفي السياق ذاته فقد أدى تبني الكثيرين لمبادئ الفلسفة اليونانية ومركزية الإنسان لتضاعف نشاط الإنسان، وتصاعد ثقافة الاستهلاك وبخاصة مع تزايد أعداد البشر، وتطور وسائل الزراعة والصناعة وهو الأمرُ الذي أدى إلى بروز فكر مناهض لهذه الفلسفة وهذا الفكر مستقى من فلسفة ما بعد الحداثة، التي عُنيت برفض النظرة المتعالية والمتسلطة للمركزية الإنسانية وهو ما يتوافق مع بوصلة النقد البيئي التي تسعى إلى بحث عوامل الاختلال والتدهور، وذلك عن طريق تقديم تفسيرات ثقافية، أو أخلاقية لهذا التدهور؛ إذ يُقرر الإيكولوجيون أن "أزمة البيئة هي في عمقها أزمة أخلاقية"(٨٨)؛ ولذا لا بُدَّ من تجاوز النظر للمشاكل والتحديات

البيئية إلى محاولة تأسيس خطاب أخلاقي ينهض على إحياء المقولات، والقيم، والعلاقات الأخلاقية بين الإنسان والبيئة ومن هذه العلاقات تأتي علاقةُ النقد البيئي بالأخلاق العرقية إذ يُسلط الكاتبُ الضَوءَ عليها فنجده يُفرِّق بين أخلاق أهل النجع وأخلاق آل جبريل من حيث إن "**سلوك وأخلاق تلك العائلة يتناقضان تناقضا صارخا مع تقاليد وأخلاق أهل النجع، وإنه وإن كان الزمن الذي سيقضونه متجاورين زمنا قصيرا، إلا أنه قد يترك آثارا لا تُمحى ولا تزول**"(٨٩)

وفي سياق متصل فإن "الأخلاق البيئية تُؤمن بأن "الأنساق البيئية" تُسهم في التجربة الإنسانية وفي التجارب الحيوانية وتتيح حياة النبات، لكنها تُضيف إلى ذلك وبشكل "راديكالي" أن الحفاظَ على التوازن والوحدة والجمال الذي يسود المجتمعات البيولوجية ينبغي أن يكون هدفًا وجوديًا"(٩٠) ويتبدى هذا الأمرُ لدى جميع الكائنات الحية حتى في أوج احتدام الصراع فيما بينها، وهو الأمرُ الذي جاء في معرض الصراع بين الإنسان (أفراد القبيلتين) وفئران البراري؛ إذ اقترحت الأخيرة الاستعانة بفئران المدينة؛ لما عُرف عنها من قذارة ونقل للأمراض والفيروسات وذلك للقضاء على البشر لكنهم على حد تعبير الراوي أبدوا "**اعتراضا قويا عليه من الناحيتين، العملية والأخلاقية. أولا؛ لأنه ليس هناك من يضمن أن مثل هذه الأمراض ستبقى مقصورة على البشر فقط، فما أكثر ما استشرت مثل هذه الأوبئة فأصابت كل ما تحتويه المنطقة من كائنات حية، بما في ذلك النباتات والأشجار، وسممت الماء والغذاء والهواء...أما النقطة الثانية...أن تتريث الجرابيع قليلا، وتنتظر انسحاب الآدميين بسلام، بدلا من أن تُلوث أيديها وسمعتها وتاريخها باستخدام هذه الوسائل القذرة**"(٩١)، وهو ما يعكس مبدأ أخلاقيًا مهمًا من مبادئ الفلسفة البيئية، التي تُعنى بإدارة العلاقات بين الكائنات الحية وبعضها البعض على أساس أخلاقي، مما يؤدي إلى حماية البيئة، والمحافظة على نظامها الحيوي، وكائناتها الحية.

الوعي البيئي الاجتماعي (الإيكولوجيا الاجتماعية Social Ecology):

تندرج الإيكولوجيا الاجتماعية ضمن التشعبات المتعددة للإيكولوجيا، ويُعَدُّ الفيلسوف وعالمُ البيئة الأمريكي موراي بوكتشين Murray Bookchin (١٩٢١ : ٢٠٠٦م) رائدَها الأول، الذي آمن بأن الحل لأغلب المشكلات البيئية اجتماعيٌّ؛ وعليه نُدرك أن "عزل المشكلات البيئية عن المشكلات الاجتماعية...سوف يعني إساءة فهم جسيمة لمصادر الأزمة البيئية المتصاعدة، فالطريقة التي تتعامل بها الكائناتُ البشرية بعضها مع بعض أمرٌ جوهري لبحث الأزمة البيئية. وما لم نعترف بهذا بوضوح، فسوف نفشل _على نحوٍ مؤكد_ في إدراك أن الذهنية التراتبية والعلاقات الطبقية التي تتخلل بعمق كبير المجتمع تؤدي إلى ظهور فكرة الهيمنة على العالم الطبيعي"[٩٢]، بما يشي بأن الوعي البيئي الاجتماعي يسعى إلى نبذ فكرة الهيمنة على الطبيعة، وتنحية الصراعات الطبقية، والنزاعات العرقية.

وانطلاقًا مما سبق يُعنى الوعي البيئي الاجتماعي بدراسة العلاقات الترابطية بين المحيط البيئي والمجتمع، والإقرار بأن أغلبَ المشكلات والأزمات البيئية إنما تنجم عن المشكلات الاجتماعية، ومن ثَـمَّ يستوجب فهم المشكلات البيئية وحلها استيعاب التأثيرات الاجتماعية ومحاولة دراسة أوجه الصراعات الثقافية، والعرقية، والعلاقات المكانية، والاجتماعية ما بين الأفراد والجماعات، وبخاصة أن أغلبَ المجتمعات عندما تحل بها أزماتٌ أو كوارث فإنها لا تسقط، وإنما يعمل أفرادُها وجماعاتُها على محاولة تنظيم حياتهم وأمورهم، وهو ما يؤكد جوهرَ الفلسفة اللاسلطوية Philosophy Of Anarchism، التي تنهض عليها الإيكولوجيا الاجتماعية.

وعلى صعيد الاشتغال والتطبيق فإن أول ملامح الإيكولوجيا الاجتماعية في الرواية المدروسة هو **الغزو العمراني** Isolation، وهو ما تمثّل عن طريق غزو أهل النجع، وآل جبريل لولاية جندوبة الأول جاء من مزدة والثاني من بير حكيم إلا أن الجماعتين سرعان ما ستنشب بينهما خلافات ونزاعات بسبب الإقامة

نظرًا لرغبة أهل النجع في الاستئثار بالسنابل، التي عثروا عليها في جحور الفئران لأنفسهم، وعدم رغبتهم مشاركة آخرين لهم فيها "**كان موضوع الحديث في سهرة الرجال...هو أمر هذه العائلة الوافدة، التي حطت عليهم كفواجع الدهر، بلا سابق إنذار وكيف يكون أسلوبُ تعاملهم معهم ...**

_ الخير كل الخير أن ندعهم في حالهم، لكي يتركنا هؤلاء القوم في حالنا"(٩٣)

إلا أنه ومع توالي الأحداث ينشب نزاعٌ عرقي بين الجماعتين، وهذا النزاعُ يؤدي إلى اضطراب بيئي وذلك بسبب اختلاف العادات والتقاليد ما بين الجماعتين وبخاصة تحرر نساء آل جبريل.

وابتداءً من بروز الشخصيات النِسوية لآل جبريل يبدأ ظهورُ السلطة البطريركية أو الذكورية، ويتجلى الصراعُ بين رجال أهل النجع ونساء آل جبريل وعلى رأسهم رابحة، التي يُحبها الفقي برهان (فقيه النجع وطبيبه) إذ يقف هؤلاء الرجال سدا منيعا للحيلولة دون التعاون معهم أو عقد أي أواصر وصلات "**فلا يريدون للعلاقة معهم أن تمتد لأكثر من ذلك. لقد أسلموا قيادهم لامرأة من أهلهم، فذاك شأنهم، الذي لا يريد الشيخ حامد أبوليلة أن يخوض فيه، أو يكون له شأن به؛ لأنه من الأساس لا ينوي الدخول في أي تعامل معهم. لنسائهم عاداتٌ جلبوها من بلاد المهجر لا تتفق مع ما عهدناه وارتضيناه لبناتنا وعائلاتنا...يقول الشيخ: فليبقوا بعيدا عنا، لا نريد أن يختلطوا بنا، أو أن نختلط بهم**"(٩٤)

غير أن رابحة تقاوم هذه القطيعة، فتسعى بمعاونة الفقي برهان لتطبيع العلاقات مع أهل النجع، وتقاوم بحبها سلطة رجال النجع "**وتدريجيا بدأت العلاقة ... بين آل جبريل، وأهل النجع تعود إلى طبيعتها، وبدأ الناس يستأنفون الاتصال ببعضهم البعض، ويتبادلون الزيارات عبر ضفتي الوادي، ولم تجد نساء آل جبريل حرجا من زيارة زينب في خيمة والدها...، والاختلاط بنساء النجع في رحاب الشيخ حامد نفسه**"(٩٥)

وبعد عودة العلاقات بين آل جبريل وأهل النجع تُقيم رابحة والفقي برهان عرسهما "**ومن تأليف العمة مريومة، ظهرت أغنية جديدة، خاصة بهذا العرس، صار يُرددها الحاضرون بفرح، وحماسة يقول مطلعها :**

يا فرحة نجع الفرسان

بليلة عمرك يا برهان

هدية من برقة جابوها

ناس على كيفك جدعان

وفي أقصى الأفق الغربي، انفجر ضوءٌ باهر، مزّق بسرعة حجب الظلام، وأنار الكونَ الفسيح"(٩٦)، وكذلك تنتصر زينب في حبها لعامر وتتزوج منه رغم معارضة عمها الحاج أبوحمامة؛ إذ يضطر الأخير إلى مغادرة جندوبة، وكأن الطبيعة في هذه الرواية تحتفل بانتصار الحب، وقهر التسلط على المرأة ممثلة في رابحة، وزينب.

وفي السياق ذاته فإن المرأة في هذه الرواية تبدو مرتبطة بحياة الصحراء، والبادية وخبيرة بها، ومن ثم نجدها في مقاطع كثيرة بالرواية تتماهى مع هذه البيئة الصحراوية وتتفاعل معها فرابحة "**تستخدم الأعشاب الطبية التي تعلمتها من المرحومة والدتها، كما أنها تعلمت منها قراءة خط الرمل ومعرفة الطالع، وهي التي تُشير على أفراد عشيرتها ماذا يفعلون، وقد تعلموا بأقسى السبل وأكثرها وجعا ومشقة ألا يُخالفوا تعليماتها ... وهي التي أشارت على أهلها المقربين أن يتجهوا إلى جندوبة**"(٩٧)

وعلى نحو متصل يُقدّم البرنامجُ السردي في الرواية المرأة قوية، ومتفردة كما الطبيعة والبيئة التي تعيش فيها، وهو ما يتفقُ إلى حدٍ كبير مع جوهر الفلسفة البيئية، التي تُقرر أن "النساء أكثر تناغمًا مع الطبيعة من الرجال"(٩٨)

وقمينٌ بالإشارة هنا أن الإيكولوجيا الاجتماعية تُعنى أيضًا بتنظيم العلاقات الاجتماعية، والعمل الجماعي، وهو ما يتمثل في الرواية على نحو واضح وجلي

كما في مثل قول الراوي: "**كانتْ كُلُّ عائلة من عائلات النجع، قد أحضرت معها عدة الحصاد، من مناجل ومقاطف وسلال وحبال، وتم الاتفاق على أن يخرجوا لعملهم الجديد في حفر الجحور، كما كانوا يفعلون متعاونين أيام الحصاد أي مباشرة بعد صلاة الفجر، وإلى وقت الضحى، يأخذون بعد ذلك راحة، أثناء فترة القيلولة، ويذهبون للاحتماء بالخيام، وأشجار الأثل والبطم من قيظ الظهيرة، ليعودوا بعد صلاة العصر لاستئناف الحفر حتى غروب الشمس**"(٩٩)

ومن مهام الايكولوجيا الاجتماعية، التي تمثلت في الرواية بوضوح وعي الكاتب بأثر البيئة في السلوك الفردي، والاجتماعي فالقارئ للرواية والمُحلل لها يستطيع تفسير الكثير من العلاقات الإنسانية، والسلوكيات، ومنها تيمة النوع والعرق لما للبيئة من أثرٍ في السلوك وذلك كما في سؤال الفقي برهان للروماني حول صلاحية زهرة للزواج من الأخير "_ **ظل الروماني يهرش رأسه دون أن يقول شيئا، ودون أن يرى برهان في هذه الحيرة شيئا يدعو للإندهاش، فالروماني ليس إلا ابنًا من أبناء هذه البيئة التي تكبر التطهر في النساء والرجال، وترى أن أصول الحكمة تقتضي أن تنأى المرأةُ بنفسها عن مخالطة الرجال، ومهما أبدى الرجل إعجابا وإفتتانا بالمرأة المغناج، فهو لا يتزوجها؛ لأنه يعرف أنها كما غنجت له يمكن أن تغنج لرجال آخرين**"(١٠٠)

ومن تمثلات الإيكولوجيا الاجتماعية ومظاهرها في الرواية كذلك وجود **صراع بين البادية والمدينة**؛ إذ يُظهر الفقيه هذا الصراع على المستويين البشري، وغير البشري فعلى المستوى البشري يتبدى الصراع في مثل هذا الحوار الذي دار بين زينب وعامر "**ما رأيك في أن يحيا الإنسان هنا، أو في بيئة بدوية أخرى تُشبه هذه البيئة ...**

_ نعم ولكن ها هو القحط أيضا يُخرجنا من بلدتنا إلى بلدة جندوبة. ولهذا فإنني أختار بديلا آخر أجمل وأرقى، هو المدينة. إنني أحب المدينة لما أقرأ وأسمع عنها. فكيف لا تُحبها أنت الذي سافر إليها عديد المرات ؟

_ سأعتبر هذه أول نقطة خلاف بيننا "[١٠١]

تتمثل رؤية عامر في المقطع السابق في الانتصار لبيئة البادية، بوصفها مملكة تشعر الذات فيها بحضورها، وهو ما يُمثل إحياءً، ويُصور ألفة بين الشخصية، والمكان، وذلك من خلال تمثيل الإحساس بنقاء البادية في عديد من مواضع الرواية؛ ولذا يغتنم الفقيه الفرصة دوما للحديث عن مظاهر بيئة البادية الخلابة وفي الوقت نفسه ينتقد المظاهر والوسائل الدخيلة عليها "**وصلت إليهما والصباح ما زال في بواكيره، فوجدتهما قد اتخذا مجلسا في المكان المعتاد، المُطل على بهاء الوادي العامر بالأشجار والحقول، ودار الحديث بينهم عن الأساليب التي يستخدمها الإنسانُ في مطاردة وقتل غيره من المخلوقات التي تسكن هذه البراري والتي تطورت من الفخاخ والمقاليع إلى أحدث المصائد والبوارید**"[١٠٢]

ولتعميق الإحساس ببيئة البادية وتحسين صورتها للمتلقي يلجأ الكاتب لتطبيع المجردات وتبيئتها عبر ما يُضفيه عليها من خصائص وسمات يُعزز بها فكرة التكامل والانسجام بين المنظومة البيئية وكائناتها "**في ذروة الهضبة، وفي تجويف كبير مريح، نحتته عواملُ الطبيعة داخل قبة صخرية، يعيش متجاورين، الحكيمان الزاهدان، الضب والقنفد، ويخرجان أحيانا من هذا التجويف إلى مسطح صغير على حافة الهضبة، يُشبه الشرفة يُطلان منه على الوادي والحقول، حيث تُؤلف العناصر المتنوعة التي تزخر بها الحياة فوق تلك السهوب منظرًا ينبض بالجمال والجلال**"[١٠٣]

وبخلاف بيئة البادية تتبدى المدينةُ في الرواية مشوهة لدى عديد من الكائنات البشرية، وغير البشرية "**تفخر الجرابيعُ بأنها تنتمي إلى البوادي، وأنها لا تذهب إلى المدن ولا تحب الاقترابَ منها على الإطلاق وبينها وبين فئران وجرذان المدينة قطيعة شاملة كاملة فهي تحتقرها وترى نفسها أرقى منزلة منها ... لأن تلك الفئران البائسة التعيسة فرطت في كرامتها وتنازلت عن كبريائها، وارتضت العيش الذليل في تلك الأركان المعتمة الموبوءة داخل المدن**"[١٠٤]

وأخيرًا تتبدى الأخلاق البيئية التي تُعنى بفحص العلاقة بين الكائنات الحية والبيئة الطبيعية وبخاصة من المنظور الاجتماعي؛ حيث "تعمل الأخلاق التكاملية في الإيكولوجيا الاجتماعية على القضاء على السلبيات، التي مُنيت بها الأخلاق الطبيعية Naturalistic Ethics عبر نشر أخلاقيات من قبيل: التكافل، والتبادلية، والحرية، والذاتية بوصفها دعائم لمجتمع تعاوني خالٍ من الهيمنة"(١٠٥) كما في مثل حديث الكاتب عن جرابيع البوادي، التي "**اختارت الحياة في هذه الفضاءات العريضة، الفسيحة؛ لأنها تعشق الحرية، وتحرص على كبريائها وكرامتها، ونظافة مسكنها ومأكلها ومسلكها، كما أنها تحب أن تعيش في أمن وسلام مع مَنْ حولها، وتحترم علاقة حُسن الجوار، التي تربطها بقاطني الأرياف من بشر وحيوانات وحشرات**"(١٠٦)

ولتدعيم مبدأ الأخلاق البيئية في الرواية لجأ الكاتبُ إلى التعلق النصي hypertextuality مع عدد من النصوص والموروثات الثقافية بوجه عام والدينية على نحو خاص؛ لما لها من قدرة على إقناع المتلقين والقراء والتأثير فيهم، بل وصناعة الوعي لديهم مثلما جاء في حديث السارد عن شجرة الأثل "**وما أن وجدت الحاجة خديجة شجرة أثل كبيرة تتسلق أحد فروعها حرباء جميلة أخضر لونها طبقا للون أوراق الشجرة، وخالطت الاخضرار مناطق تسطع بالبياض ... حتى هتفت من أعماقها مهللة، مكبرة، مسبحة بجمال وجلال القدرة الإلهية، وأعلنت أن هذه الشجرة التي أوت إليها هذه الحرباء شجرة مباركة؛ لأن الحرباء كائن له حرمته ويتمتع بمنزلة رفيعة بين مخلوقات الله**"(١٠٧)، وكما في حديث الكاتب أيضا عن قتل مبيد الحشرات للنمل، وتوصية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالنمل خيرا"(١٠٨)، وكذلك التعلق النصي مع عددٍ من الأغاني الشعبية الليبية مثل أغاني الحصاد.(١٠٩)

التوازن البيئي (الإيكولوجيا العميقة Deep Ecology) :

في إطار ترابط العناصر والنظم الطبيعية والبيئية مع بعضها البعض، وتفاعل الكائنات الحية مع مكونات الطبيعة والبيئة تتشكل الأنماطُ الحياتية وتتباين عناصرُ الزمان والمكان بما يجعل من النظم البيئية مجموعة أو سلسلة من الحلقات المترابطة والمتوافقة، وفي حال اختلال أو فقدان أي حلقة من حلقات هذه السلسلة ينعدم التوازنُ الطبيعي والبيئي أو ما يُطلق عليه ليبوبل Lippoil "هرم الأرض"، وما يترتب على انعدام هذا التوازن من تحديات، ومشكلات، وأزمات بيئية.

تنهض الإيكولوجيا العميقة، التي تنتمي للموجة الثانية من موجات الفلسفة البيئية "على مبدأين أساسيين اثنين: أحدهما: هو تبصُّر علمي في ترابط منظومات الحياة كافة على الأرض، إلى جانب فكرة أن المركزية البشرية طريقة غير موفقة في رؤية الأشياء (نظرية المساواتية البيومركزية أو المساواة بين الكائنات لبول تايلور Paul Taylor)...والثاني: هو ما يسميه آرني نايس Arne Naesss حاجة الإنسان إلى التحقق الذاتي فبدلًا من التماهي مع أنانيَّاتنا ينبغي علينا أن نتعلَّم التماهي مع الشجر والحيوان والنبات"(١١٠)، فقد خلق اللهُ الطبيعة على هيئة متوازنة ولكن التدخلات البشرية قد أربكت هذه التوازنات وأدت في كثيرٍ من الأحيان لاختلالها، ومن ثم ظهرتْ المشكلاتُ والمخاطرُ البيئية نتيجة لهذه التدخلات ومنها صناعة الإنسان للمبيدات الحشرية التي ظهرت في أكثر من مشهد سردي من مشاهد الرواية كما في مثل قول الراوي: "**لكن الشيخ حامد لم يكن مرتاحًا لهذا الاختراع الذي لم ير له مثيلا من قبل. لقد أحس بخوف غامض منه فالله لم يخلق كل هذه الكائنات لكي يتولى الناس إبادتها بمثل هذه المادة السائلة القاتلة التي لو بالغ الناسُ في استخدامها لاختفت من الدنيا هذه الديدان والجنادب والخنافس والفراشات والنمل والمن والذباب والجعارين وغيرها من حشرات لا حصرَ لها لم يخلقها الله عبثا**"(١١١)

مما سبق يستطيع القارئ لرواية فئران بلا جحور أن يتلمس بشكل واضح وجلي وعي الكاتب بتكامل العناصر الطبيعية والبيئية وضرورة التعاون فيما بينها كما في مخاطبة الفأر للفرّان أو الخباز بقوله: "**يا صانع الخبز، ومدخل البهجة على قلوب الجياع أعطني رغيفا واحدا أعطيه لنساء الفرح كي يزغردن للوادي، والوادي يعطيني الماء، والماء للسدرة، والسدرة تعطيني النبق، والنبق للعنزة لتعطيني الحليب، والحليب لأم بسيسي كي تعيد لي ذيلي، الذي أرقص به في الأفراح**"(١١٢)

ولا تقتصر صناعة التوازن البيئي في الرواية على الإنسان بل تمتد إلى الكائنات الأخرى "**لم يترك الجفافُ شيئًا للناس. قتل أغنامهم ثم انثنى يريد قتلهم هم أيضا. لم ينقذ أهلنا من الموت إلا الجراد. كان جراد هذا العام نعمة أرسلها الله إلينا جاء في أسراب لا حصر لها**"(١١٣)

مما سبق يُؤسس الكاتبُ للوعي بالتوازن البيئي في عمله، ويصل هذا الفكرُ الواعي Conscious Thought إلى مداه لدرجة التقديس وهو ما تَبدى في حديث الراوي عن الحاجة خديجة عند رؤيتها لشجرة الأثل والحرباء "**ما إن رأت الحاجة خديجة ذلك حتى هتفت من أعماقها مهللة، مكبرة، مسبحة بجمال وجلال القدرة الإلهية، وأعلنت بأن هذه الشجرة التي أوت إليها الحرباء، شجرة مباركة ... لما حباها به الله من قدرة عظيمة على التخفي، أو لما اشتهرت به من عداء للزواحف السامة، التي تقوم بقتلها عن طريق مادة في لعابها واستخدام لسانها في الفتك بالحشرات الضارة المؤذية. مما يعني بيئة نظيفة للإنسان الذي جاورها**"(١١٤)، فقد ركز الكاتبُ في الرواية محل الدراسة على أن التيمات المرتبطة بوجود الكائنات غير البشرية في الرواية، والمضمرات البيئية التي مثلتها هذه الموضوعات لم تأت من حيث التمثيل السردي والبيئي من قبيل الأذي، والتدمير بل جاءت لإحداث توازن طبيعي، وبيئي.

التنمية المستدامة والاستدامة البيئية Sustainable Development :

ضمن التمثلات والتجليات المهمة للنقد البيئي في تناول النص الأدبي يأتي تمثيلُ التنمية المستدامة، وهو التمثيلُ، الذي يدلل على أن النص الأدبي الذي يُعنى بالطبيعة والبيئة لا يكتفي فيه الأديبُ برصد التحديات والمشكلات والقضايا البيئية، وإنما يهتم أيضا بالبحث في عناصر التنمية المستدامة، التي بها يتم ضمان بقاء الكائنات الحية واستمرارها، وهو الأمرُ الذي يتطلب وجود بيئة حاضنة تَمدُ هذه الكائنات بأسباب العيش عن طريق توافر الظروف الملائمة للاستدامة، وبخاصة عندما يكون النظامُ البيئيُّ صحراويا، وموارده محدودة وقليلة؛ ولذا فإنه من الضروري اتخاذ تدابير واتباع سلوكيات من شأنها أن تعمل على تفعيل مبدأ التنمية المستدامة "**كان لا بد وهم يدخلون يوما ثالثا من أيام العمل، وجني المحاصيل من تحت الأرض، أن ينظموا العمل، بحيث لا يكون الفاقدُ كبيرًا، كما حدث في اليومين الماضيين، حين ركضوا عبر الحقول في كل اتجاه، يحفرون بطريقة عشوائية ويداهمون شجيرات السدر، وأدغال القزاح والعرفج، التي تأوي إليها الجرابيع، فينشبون مناجلهم وأحيانا فؤوسهم فيها دون اعتبار لما قد يحدث من اتلاف لما بداخلها من سنابل**"(١١٥)

وفي هذا السياق يغدو الاقتصادُ عاملًا مهما للتعايش، وذلك من خلال الحفاظ على مختلف الموارد الطبيعية والبيئية، ومحاولة تحديد الاستهلاك وتنظيمه "**ولكن هذا التبذير، يجب أن يتوقف، كما صار بعضُهم يقول للبعض الآخر، ولا بد من تنظيم جمعهم لهذه المحاصيل، وبعد ذلك تنظيم استهلاكهم لها، فلا يكون ما يأكلونه منها غير جزء يسير جدا مما يدخرونه ليكون مئونة تكفيهم على مدى عام كامل، أي إلى أن يحين موسمُ الحصاد القادم، فهم لا يجب أن يكونوا أقل حكمة من النمل والفئران**"(١١٦)

ومن اللافت للنظر في هذه الرواية وعي الكاتب بمبدأ التنوع البيولوجي Biodiversity، وهو المبدأُ الذي يدعم عملية التنمية المستدامة، وهذا التنوعُ يكون

عن طريق وفرة الأنواع Species Diversity، وتباين الكائنات الحية مثلما جاء على لسان الضب في الرواية "**قال الضبُ مُعلقًا على أفواج النازحين إلى الهضبة :**

_ كلنا نسعى لهدف واحد في الحياة هو حفظ الذات.

_ وهل يقتضي حفظ الذات كل هذا العناء والعذاب.

_ حفظ الذات معناه أيضا حفظ النوع، ومن هنا تنبع الأهمية القصوى لهذه القضية"(١١٧)

وفي السياق ذاته يؤكد الكاتب أن هذا التنوع إنما يأتي نتاجًا للتطور التاريخي للكائنات الحية "**يثيرني جدًا سلوك هذه الكائنات، التي تقطن الوادي. إن ما يصدر عنها من صخب، وما ينتابها من فزع يُنبئ بأنها لم تر بشرًا قبل اليوم ...**

_ نعم ما أغناها بالخبرات والتجارب، هذه الرحلة التي نقطعها من المهد إلى اللحد.

_ أريد أن أكون أكثر تفاؤلًا، فأسميها رحلة الكائنات من الماضي إلى المستقبل"(١١٨)

وبشكل أكثر تحديدًا قد يقع التنوعُ داخل حيوزات النوع أو الكائن الواحد، وهو ما يُعرف بالتنوع الجيني Genetic Diversity، وهو ضروريٌ لضمان بقاء كافة الأنواع وحفظها؛ ولذا يُسلط الكاتبُ الضَوء على مبدأ تكاثر الكائنات ذات الفصيلة الواحدة أو النوع الواحد كما جاء على لسان الضب "**فظلوا صامتين ينتظرون منه أن يُنير أذهانهم ... عندما يرشدهم إلى أهم أسلحة المقاومة لديهم. فقال الضبُ باسمًا: إن هذا السلاح هو النشاط الجنسي. وعليهم أن يعودوا الآن إلى بيوتهم، ويدخلوا على الفور إلى حجرات نومهم ... لكي يستطيعوا بالإخصاب والتوالد إفشال أي مخطط، وإبطال كل سلاح يستخدمه البشر لإبادتهم**"(١١٩)

يؤكد الكاتبُ فيما سبق ضرورة التنوع وتوسعة دوائر الكائنات البيئية، والنظر إلى البيئة والكون ليس بوصفهما مركزا للإنسان بل بوصف الإنسان كائنا حيا من مكونات البيئة لا ينبغي عليه أن يستبد أو يطغى على الكائنات الأخرى، وهو الأمرُ الذي أولاه الكاتبُ عناية كبيرة وواضحة حتى في ترتيب فصول الرواية؛ إذ كان الكاتب يورد فصلا أو قسما عن الإنسان، وفصلا عن الكائنات غير البشرية طوال تقسيمات الرواية أو فصولها الخمسة والثلاثين.

الخاتمة ونتائج البحث :

سعى هذا البحثُ إلى دراسة "النقد الأدبي البيئي وتمثلاته في رواية فئران بلا جحور (صفحة من كتاب الجوع) لأحمد إبراهيم الفقيه"، وقد حاول الباحث في عمله أن يُلقي الضَوء على الوعي البيئي عند الكاتب وأثر الخيال البيئي في بناء هذه الرواية، التي تمثلت فيها البيئة وعيا وبنية من خلال عديد من التمثلات والمكونات، وذلك قصد تبيان العلاقات القيمية والأخلاقية بين الإنسان والكائنات الأخرى التي تتشارك معه المحيطَ البيئي.

وقد توصلتُ في هذا البحث إلى مجموعة من النتائج العلمية، لعل أهمها :

أولًا_ يُعَدُّ مفهومُ النقد الأدبي البيئي مفهوما شموليا للكثير من الممارسات النقدية التي ترصد علاقة البشر بغيرهم من الكائنات وكذلك علاقتهم بالمُحيط البيئي، وذلك عن طريق الخطابات والنصوص الأدبية.

ثانيًا_ مثلت اللغة في الرواية المدروسة عنصرًا أساسيًا من عناصر التماهي والتكامل بين الإنسان والبيئة بكافة مكوناتها، وقد استثمر الكاتبُ هذا العنصر بوصفه عنصرًا فنيا وتشكيليًا عامًا للتعبير عن الكائنات البشرية، وغير البشرية.

ثالثًا_ **أسهم التخييلُ البيئيُّ إسهامًا كبيرًا في تبيان التمثلات البيئية وروافدها الثقافية المتمثلة في جملة العناصر والآليات البيئية المستقاة غالبيتها من الفلسفة البيئية، فالرواية حتى وإن كانت تحمل ترميزات ثقافية وسياسية واضحة فإن عنصر التخييل هو النافذة التي أطل منها الباحث لدراستها من منظور النقد البيئي.**

رابعًا_ أورد الكاتبُ في روايته عددًا من الثنائيات الجدلية، لعل أهمها: الخصب والجفاف، والحياة والموت ليُدلل بها على العلاقة التبادلية ما بين الإنسان من جهة والطبيعة والبيئة من جهة ثانية، فالعلاقة بينهما علاقةٌ ثقافية كما أن إدراك المتلقي لهذه العلاقة يُعَدُّ بناءً ثقافيًا أيضًا.

خامسًا_ حاولتْ روايةُ فئران بلا جحور صياغة الروابط بين الكائنات الحية، وطرحت تساؤلًا حول العلاقة بين البشري، وغير البشري، وهل من الممكن أن تختلفَ المواقفُ والرؤى بينهما بتغيّر المواقع ؟

سادسًا_ قدّمت الروايةُ صرخةً بيئية عما خلّفه الاستعمارُ من آثار في تدمير البيئة مثل الألغام، والنفايات السامة وما آلت إليه جغرافية الصحراء النقية من اضطراب، وتشويه بيئي.

سابعًا_ نهضت الرواية بدور مهم ومحوري حاول فيه الكاتبُ إحداث وعي طبيعي وبيئي، وتقديم التزام أخلاقي للمتلقين نحو القضايا البيئية، التي أوردها في روايته، ولعل أهم هذه القضايا: التوازن البيئي، والعدالة البيئية، والصراع بين البادية والمدينة.

ثامنًا_ حاول الكاتبُ في هذه الرواية أن يصوغَ العلاقةَ بين الإنسان وما يُشاركه المحيط البيئي من كائنات عبر ثنائية البشر والحيوانات، وذلك من أجل التأكيد على وحدة الطبيعة والكون.

تاسعًا_ جمع الكاتبُ في روايته بين الجانبين: العلمي ممثلًا في المعلومات العلمية الخاصة بالجغرافيا الثقافية والمكانية والبيئية وتقديم طرح معرفي وعلمي في عمله، والأدبي وذلك عبر صياغة هذا الطرح بلغة خيالية وأدبية متميزة.

عاشرًا_ سعى الكاتبُ في روايته إلى إعلاء قيمة التوازن البيئي، وهو بسبيل هذا استنطق العناصر الكونية، واستحضر المكان بوصفه بطلًا لهذا العمل.

حادي عشر_ لم يغب التناص وبشكل خاص التعلق النصي عن الرواية، وقد حقق حضوره دلالة الوعي الأخلاقي البيئي وتأكيد هذا الوعي للمتلقين قصد استمالتهم، والتأثير فيهم.

وبعدُ فلا يزال ميدانُ النقد الأدبي البيئي من الميادين غير المطروقة في بحوثنا ودراساتنا، وهو ميدانٌ يحتاجُ إلى الكثير من البحوث والدراسات، فقد غدا ما يُقدم حتى مسمى النقد البيئي أو النقد الإيكولوجي حقلًا نقديًا آخذًا في التنامي، وقد

أمست الحاجة إليه ملحة لفهم وتقييم النصوص الأدبية التي يُمكن أن تُصنف تحت عنوان الأدب البيئي.

أما على مستوى الخطاب السردي عند أحمد إبراهيم الفقيه فيأمل الباحثُ أن يكون هذا البحثُ فاتحة لدراسات، وبحوث قادمة عنه؛ لخصوصية كتاباته وأعماله، واستثماره للطبيعة والبيئة وتوظيفها خياليا، وإبداعيا.

وأخيرًا فإن الباحثَ لا يدّعي في هذا البحث سبقًا، ولا أفضلية وإنما يطمح إلى أن يجيء بحثه ليُكمل بناء ما سبقه من بحوث ودراسات قُدّمت في هذا الميدان الجديد من ميادين النقد الأدبي، والحمدُ لله من قبلُ، ومن بعد.

الهوامش والإحالات المرجعية :

١ ليونارد جاكسون. بؤس البنيوية (الأدب والنظرية البنيوية) ترجمة: ثائر ديب. المركز القومي للترجمة. العدد (٢٢٠٤) القاهرة ٢٠١٤م. ص: ١٨٠

٢ ابن منظور الإفريقي المصري (أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ). لسان العرب. دار صادر. بيروت. د.ت. المجلد الأول. ص: ٣٦، وما بعدها. مادة: (بؤا)

٣ أحمد عبدالكريم سلامة. قانون حماية البيئة (دراسة تأصيلية في الأنظمة الوطنية والاتفاقية). دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٩٨م.

٤ رجاء وحيد دويدري. البيئة "مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي". دار الفكر. دمشق ٢٠٠٤م. ص: ٢٥

٥ السابق. نفسه بتصرف.

ويُنظر أيضا: أندرو إدجار، وبيتر سيدجويك. موسوعة النظرية الثقافية (المفاهيم والمصطلحات الأساسية). ترجمة: هناء الجوهري. مراجعة وتقديم وتعليق: محمد الجوهري. ط٢. المركز القومي للترجمة (العدد ٢ / ١٣٥٧) القاهرة ٢٠١٤م. ص: ١١٦، وما بعدها

٦ مايكل برانش. النقد الإيكولوجي. ترجمة: معين رومية. مجلة نوافذ. العدد (٣٦) النادي الأدبي. جدة مايو ٢٠٠٧م. ص: ٢٧

٧ إيمان مطر السلطاني وآخرون. نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطيفة الدليمي. بحث منشور بمجلة كلية التربية. جامعة الكوفة العدد السادس يناير ٢٠١٩م. ص: ٦٣١، وما بعدها

٨ مايكل كوهن. النقد البيئي تحت المنظار. ص: ٤٦ بتصرف

٩ جيليكا توشيتس: النقد البيئي دراسة بينية في الأدب والبيئة، ترجمة سناء عبد العزيز، مجلة فصول، النقد الأدبي وتداخل الاختصاصات، المجلد ٢٦، العدد (١٠٢) ملف خاص عن النقد البيئي. شتاء ٢٠١٨م. ص: ٣٣٠

١٠ يُنظر: ابن عبدربه الأندلسي (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن حمد (ت ٣٢٨هـ) العقد الفريد. تحقيق: مفيد محمد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٤هـ. ج١ / المقدمة. ص: ٤، وما بعدها

* وردت نسبة هذا الكتاب لأبي القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي (٣٣٨: ٣٩٨هـ / ٩٥٠ : ١٠٠٧م) عند كل من:

_ إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى. بغداد.د.ت. المجلد الثاني،ص:٤٣٢

_ فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي. تحقيق: عبدالله عبدالله حجازي. جامعة الملك سعود. الرياض ١٤٣٠هـ، المجلد الرابع، ص: ٤٣٨، وما بعدها

١١ خميس آدامي. من أجل لغة خضراء (محاولة في فهم أدب البيئة ونقده) مجلة أبوليوس. المجلد الثامن. العدد الثاني. جويلية ٢٠٢١م ص: ١٠٧

١٢ المرجع السابق. ص: ١١١

١٣ لويس ويسلنج. الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان. ترجمة: عبدالرحمن طعمة. مجلة فصول. العدد (١٠٢) المجلد (٢٦) النقد الأدبي وتداخل الاختصاصات (ملف خاص عن النقد البيئي). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠١٨م. ص: ٣٦٨ بتصرف.

ويُنظر أيضًا: فريد عوف. النقد البيئي (الرؤية والتطبيق) مجلة دراسات. المجلد (١٢)، العدد (١) مايو ٢٠٢٣م. ص: ٤٧٠

١٤ جرج جرارد. النقد البيئوي. ترجمة: عزيز صبحي جابر. مراجعة: أحمد خريس. هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) ٢٠٠٩م. ص: ١٥، وما بعدها

١٥ نقلًا عن: نجاح الجبيلي وآخرون. النقد البيئي (مقدمات. مقاربات. تطبيقات) دار شهريار للنشر والتوزيع. العراق ٢٠٢١م. ص: ٧٠

١٦ المرجع السابق. ص: ٢٢٩

١٧ جراج جرارد. النقد البيئوي. ص: ١٧

١٨ ميساء الخواجا. التخييل البيئي في رواية طوق الحمام لرجاء عالم. مجلة أبوليوس. المجلد ٨، العدد ٢، جويليه ٢٠٢١م. ص: ٤١

* تعددت مصطلحات النقد الأدبي البيئي، ولعل أهمها: النقد البيئوي، والدراسات الثقافية الخضراء **Green cultural studies**، وكتابة الطبيعة، والدراسات الأدبية البيئية، والبويطيقا البيئية **Ecopoetics**، والشعرية الإيكولوجية، والأدب الأخضر، والنقد الأخضر ... وغيرها، وقد اعتمد الباحثُ مصطلح النقد الأدبي البيئي في عنوان البحث دون غيره من المصطلحات السابقة؛ نظرًا لأنه المقابل العربي على أني قد استخدمتُ مصطلحي النقد البيئي، والنقد الإيكولوجي في البحث بمعنى واحد، وذلك عن طريق المراوحة بينهما.

١٩ رجاء وحيد دويدري. البيئة مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي. ص:٤٥٠

٢٠ خميس آدامي. من أجل لغة خضراء. ص: ١٠١، وما بعدها

٢١عزالدين المناصرة. قراءة مونتاجية في أدبية الأدب.دار مجدلاوي.الأردن ٢٠٠٦م.ص: ٣١٥، واللينينية الواردة في الإحالة المرجعية نسبة إلى فلاديمير لينين **Vladimir Lenin** (١٨٧٠ : ١٩٢٤م)، الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في تطوير النظرية الماركسية حتى عُرفت فيما بعد بـــ "الماركسية اللينينية".

٢٢ جرج جرارج. النقد البيئوي. ص: ٤٣

٢٣ جيليكا توشيتش. النقد البيئي "دراسة بينية في الأدب والبيئة" ترجمة: سناء عبدالعزيز فصول. مقال منشور ضمن مجلة فصول. العدد (١٠٢) المجلد (٢٦). ص: ٣٣٣

٢٤ جميل حمداوي وحسن أعراب. النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن. دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني. المغرب ٢٠٢٠م. ص: ٤٤، وما بعدها

٢٥ جرج جرارد. النقد البيئوي. ص: ١١، وقد ورد خطأٌ لغوي في الإحالة المرجعية، وذلك في قول المترجم: إلا أن، والصحيح فأن.

٢٦ محمد أبوالفضل بدران. أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية،بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية،المجلس الدولي للغة العربية، دبي ٢٠١٥م.ص: ١٩٥

٢٧ إيرين جيمس، وأريك موريلا. مقدمة للنقد البيئي ونظرية السرد. ضمن كتاب: النقد البيئي (مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص: ٢٦

٢٨ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور (صفحة من كتاب الجوع). دار الهلال (العدد ٦١٦) القاهرة. أبريل ٢٠٠٠م. المقدمة. ص : ٤

٢٩ مايكل برانش. النقد الإيكولوجي. ترجمة: معين رومية. نوافذ. العدد (٣٦) النادي الأدبي. جدة ٢٠٠٧م. ص: ٤٧

* نقلًا عن ويكبيديا الموسوعة الحرة Wikipedia بتصرف.

٣٠ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٦، وضمير الهاء في كلمة "كفاحهم" يعودُ إلى الكاتب ذاته، وأهله.

٣١ ميساء الخواجا. التخييل البيئي في رواية طوق الحمام لرجاء عالم. ص: ٤١

٣٢ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٧

٣٣ جبور عبدالنور. المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٩م. ص: ٢٢٧

٣٤ جريج جرارد. النقد البيئوي. ص: ٦٠

٣٥ لويس ويسلنج. الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان. ترجمة: عبدالرحمن طعمة. مجلة فصول. العدد (١٠٢) المجلد (٢٦). ص: ٣٧٧

٣٦ Sahu ,Geeta" .Ecocriticism-Understanding the relationship between literature and the Environment in Indian English novels ".Journal of Arts & Education .A Peer Reviewed International Journal, 1/1 , 2014, 23

نقلًا عن: السيد سلامة أحمد. المقدمة الطللية في المعلقات (دراسة في النقد الأدبي البيئي) بحث منشور بمجلة علوم العربية. المجلد الثاني. العدد الرابع. يوليو_ديسمبر ٢٠٢٢م. ص: ١٦٣

٣٧ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ١٦

٣٨ المصدر السابق. ص: ٩٥

٣٩ المصدر السابق. ص: ٧٦

٤٠ لورنس بيل، وأورسولا ك.هيس، وكارين ثورنبر. الأدب والبيئة. ترجمة: معتز سلامة. مقال منشور بمجلة فصول (النقد الأدبي وتداخل الاختصاصات) المجلد (٢٦ / ٢) العدد (١٠٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠١٨م. ص: ٣٥٢

٤١ المرجع السابق. ص: ٣٥٣

٤٢ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٢٤٧

٤٣ المصدر السابق. ص: ٩١، وأبو السيقان هي كُـنية الفئران أو الجرابيع.

٤٤ كمال أبو ديب. في الشعرية. مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م. بيروت ١٩٨٧م. ص: ١١١

٤٥ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٢٩

٤٦ المصدر السابق. ص: ١٣٧

٤٧ المصدر السابق. ص: ٢٤٣

٤٨ المصدر السابق. ص: ٢٤٤، وما بعدها

٤٩عبير جودت حافظ عبدالحافظ. النقد البيئي ونظرية الأدب (دراسة في نماذج روائية عربية معاصرة) رسالة ماجستير منشورة على شبكة المعلومات. كلية الآداب والعلوم. جامعة قطر. ٢٠٢٣م. ص: ١٢٢

٥٠ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٢٢٩

٥١ المصدر السابق. ص: ٣٩

٥٢ المصدر السابق. ص: ٢٤٠

٥٣ المصدر السابق. ص: ٣٧

٥٤ المصدر السابق. ص: ٣٩

٥٥ المصدر السابق. ص: ١٢٥

٥٦ المصدر السابق. ص: ٧٧، وما بعدها

٥٧ المصدر السابق. ص: ٣٢

٥٨ المصدر السابق. ص: ٣٨

٥٩ المصدر السابق. ص: ٤٠

٦٠ المصدر السابق. ص: ١٦٦
٦١ نجاح الجبيلي وآخرون. النقد البيئي (مقدمات. مقاربات. تطبيقات). ص: ٣٢٤
٦٢ جميل حمداوي. نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة. منشورات شبكة الألوكة ٢٠١٣م. ص: ٢٩٨
٦٣ مازن الواعر. الجغرافيا والأدب تقاطع المعارف البشرية. مقال بمجلة المجمع الجزائري للغة العربية. العدد الخامس السنة الثانية ٢٠٠٧م. ص: ١٩٧
٦٤ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ١٠
٦٥ المصدر السابق. ص: ١٠، ويُنظر أيضا. ص : ٣٧
٦٦ المصدر السابق. ص: ٢١
٦٧ المصدر السابق. ص: ٣٦
٦٨ المصدر السابق. ص: ٣٨
٦٩ المصدر السابق. ص: ٢٠٧، ويأتي من قبيل تفاعل الكائنات الحية مع المكان إحساس الحيوانات بالسيل في نهاية الرواية كما في صفحتي : ٢٣٠، و٢٤٠
٧٠ المصدر السابق. ص: ١٢٢
٧١ Rolston III,Holmes: Philosophy Gone Wild,Pp.114-115
نقلًا عن: معتز أحمد إبراهيم. إشكالية القيم بين الإنسان والبيئة. بحث منشور بمجلة كلية الآداب. جامعة الفيوم. المجلد (١٣)، العدد (١) يناير ٢٠٢١م. ص: ٩٦٢
٧٢ مايكل زيمرمان. الفلسفة البيئية. ص: ٨
٧٣ خميس آدامي. من أجل لغة خضراء. ص: ١١٠
٧٤ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ١٦٤
٧٥ المصدر السابق. ص: ١٩٦
٧٦ المصدر السابق. ص: ٦٩
٧٧ المصدر السابق. ص: ٢٠٢
٧٨ المصدر السابق. ص: ٢٣٠
٧٩ يُنظر : آرني نيس. حركة الإيكولوجيا العميقة، بعض الجوانب الفلسفية. ضمن كتاب الفلسفة البيئية (من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية). تحرير: مايكل زيمرمان. ترجمة: معين شفيق رومية. سلسلة عالم المعرفة (العدد ٣٣٣) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت نوفمبر ٢٠٠٦م. ص: ١ / ٢٧٢، ٢٧٧
٨٠ يُنظر : المرجع السابق. ص: ٤٨ : ٥٢

* تشي كلمة الاستعمار Colonialism في دلالتها اللغوية الأولية على البناء والتعمير، أو طلب العمار، بَيد أن الكلمة تدل في الوعي الثقافي والنظرية الثقافية على الاحتلال والغزو ومحاولة نهب ممتلكات الآخرين وثرواتهم، أو تخريب هذه الممتلكات، وطمس هويتهم، وقد ورد في موسوعة النظرية الثقافية أن كلمة الاستعمار "أصبحت تعني في القرن العشرين تحديدا الغزو عنوة والاحتلال وإدارة الثقافات والشعوب غير الغربية بواسطة القوى الأوروبية والأمريكية الشمالية"

يُنـــظـــر: أندرو إدجار، وبيتر سيدجويك. موسوعة النظرية الثقافية. مرجع سبق ذكره. ص: ٥٩

٨١ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٦١

٨٢ المصدر السابق. ص: ٩٤، وما بعدها ويُنظر أيضًا. ص: ٨٦، و١٥٢

٨٣ المصدر السابق. ص: ٦٢

٨٤ المصدر السابق. ص: ٦٣

٨٥ نقلا عن: فيكتور بوستنيكوف. الشعر الإيكولوجي. ترجمة: معين رومية. مقال منشور على شبكة المعلومات. موقع معابر الإلكتروني www.maaber.org

٨٦ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٩٦

٨٧ المصدر السابق. ص: ١٣٧

٨٨ جون ديكنسون. العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث. ترجمة: شعبة الترجمة باليونسكو. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني الكويتي. الكويت أبريل ١٩٧٨م. ص: ٢٥، وما بعدها

٨٩ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور . ص: ١٩٤

٩٠ جمال بامي. الفلسفة البيئية وأخلاق الأرض. مقال منشور على موقع وحدة الإحياء (دراسات وأبحاث المملكة المغربية) رابط المقال: arrabita.ma/blog

٩١ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور . ص: ٢٠٦

٩٢ موراي بوكتشين. ما هي الإيكولوجيا الاجتماعية؟ ضمن كتاب الفلسفة البيئية (من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية). تحرير: مايكل زيمرمان. ترجمة: معين شفيق رومية. سلسلة عالم المعرفة. ص: ٢ / ٢٣٨

٩٣ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور . ص: ١٠٣، وما بعدها

٩٤ المصدر السابق. ص: ١٤٨، وما بعدها

٩٥ المصدر السابق. ص: ٢٣٦

٩٦ المصدر السابق. ص: ٢٣٨

٩٧ المصدر السابق. ص: ١٤٠، وما بعدها

٩٨ مايكل زيمرمان.الفلسفة البيئية (من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية).ص: ١ / ٣٨٥

٩٩ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور . ص: ٨٢

١٠٠ المصدر السابق. ص: ١٧٧

١٠١ المصدر السابق. ص: ٢١٤

١٠٢ المصدر السابق. ص: ٢٠١، وما بعدها

١٠٣ المصدر السابق. ص: ١٦١

١٠٤ المصدر السابق. ص: ٧٠ ، ويُنظر أيضا نموذج أخر. ص: ٢٠٥

١٠٥ Christian Fuchs, Op. Cit., P .30

نقلًا عن: هلال أحمد وجدي. الإيكولوجيا الاجتماعية (دراسة في فلسفة البيئة لدى موراي بوكتشين) بحث منشور بمجلة كلية الآداب_ جامعة المنصورة. العدد الثاني والسبعون. يناير ٢٠٢٣م. ص: ١٠٦٣

١٠٦ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٧٠

١٠٧ المصدر السابق. ص: ٢٠٧

١٠٨ المصدر السابق. ص: ١٩٦، وقد ورد في الحديث "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ قَتْلِ النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالصُّرَدِ وَالْهُدْهُدِ "

_ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب "ما يحرم من جهة ما تأكل العرب" (٩/ ٥٣٣) (١٩٣٦٧)، وفي الآداب، باب "النهي عن قتل النملة" ص: ١٥٣، وابن ماجه في سنن ت الأرناؤوط (٣٧٧/٤) (٣٢٢٤) وأحمد في مسنده ط الرسالة (٥/ ١٩٢) (٣٠٦٦) كلهم عن ابن عباس، وقال الأرناؤوط: إسنادُه صحيح.

وفي الحديث أيضًا "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قَالَ: "نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً"

_ متفقٌ عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، باب "خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم" (٤/ ١٣٠) (٣٣١٩)، ومسلم في صحيحه، باب "النهي عن قتل النمل" (٤/ ١٧٥٩) ١٤٩ – (٢٢٤١) كلاهما عن أبي هريرة (رضي اللهُ عنه).

١٠٩ وذلك كما في مثل قول الراوي: "ومن مكان قريب، ارتفع صوتُ عددٍ من الرجال يغنون أغنية من أغاني الحصاد المعروفة، وهي :

باسمك يا مولاي بدينا

وعلى نبيك الغالي صلينا
وزرع الخير اللي في أيدينا
تزرع بركة ربي فيه"

_ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور. ص: ٨٤.

١١٠جمال بامي. الفلسفة البيئية وأخلاق الأرض. مقال منشور على موقع وحدة الإحياء (دراسات وأبحاث المملكة المغربية) رابط المقال: arrabita.ma/blog

١١١ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور . ص: ١٩٦

١١٢ المصدر السابق. ص: ٥٤

١١٣ المصدر السابق. ص: ١٠٥

١١٤ المصدر السابق. ص: ٢٠٧

١١٥ المصدر السابق. ص: ٧٩

١١٦ المصدر السابق. ص: ٨٠

١١٧ المصدر السابق. ص: ١٦٣

١١٨ المصدر السابق. نفسه.

١١٩ المصدر السابق. ص: ٢٠٦

قائمة المصادر والمراجع: (وهي مرتبةٌ ترتيبًا هجائيًا حسب أسماء المؤلفين) :

أولًا_ مصادر البحث:

_ أحمد إبراهيم الفقيه. فئران بلا جحور (صفحة من كتاب الجوع). دار الهلال (العدد ٦١٦) القاهرة. أبريل ٢٠٠٠م.

ثانيًا_ المراجع العربية :

_ أحمد عبدالكريم سلامة. قانون حماية البيئة (دراسة تأصيلية في الأنظمة الوطنية والاتفاقية). دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٩٨م.

_ جبور عبدالنور. المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٩م.

_ جميل حمداوي. نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة. منشورات شبكة الألوكة ٢٠١٣م.

_ جميل حمداوي وحسن أعراب. النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن. دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني. المغرب ٢٠٢٠م.

_ رجاء وحيد دويدري. البيئة "مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي". دار الفكر. دمشق ٢٠٠٤م

_ الطاهر أحمد الزاوي. جهاد الأبطال في طرابلس الغرب. الناشرون دارف المحدودة. الطبعة الثالثة. المملكة المتحدة ١٩٨٤م.

_ عزالدين المناصرة. قراءة مونتاجية في أدبية الأدب. دار مجدلاوي. الأردن ٢٠٠٦م.

_ كمال أبو ديب. في الشعرية. مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م. بيروت ١٩٨٧م.

_ ابن منظور. لسان العرب. دار صادر. بيروت. د.ت.

_ نجاح الجبيلي وآخرون. النقد البيئي (مقدمات. مقاربات. تطبيقات) دار شهريار للنشر والتوزيع. العراق ٢٠٢١م.

ثالثا_ المراجع الأجنبية المترجمة :

_ جرج جرارد. النقد البيئوي. ترجمة: عزيز صبحي جابر. مراجعة: أحمد خريس. هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) ٢٠٠٩م.

_ ليونارد جاكسون. بؤس البنيوية (الأدب والنظرية البنيوية) ترجمة: ثائر ديب. المركز القومي للترجمة. العدد (٢٢٠٤) القاهرة ٢٠١٤م.

رابعًا_ المجلات والدوريات العلمية :

_ إيمان مطر السلطاني وآخرون. نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطيفة الدليمي. بحث منشور بمجلة كلية التربية. جامعة الكوفة العدد السادس يناير ٢٠١٩م.

_ جون ديكنسون. العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث. ترجمة: شعبة الترجمة باليونسكو. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني الكويتي. الكويت أبريل ١٩٧٨م

_ السيد سلامة أحمد. المقدمة الطللية في المعلقات (دراسة في النقد الأدبي البيئي) بحث منشور بمجلة علوم العربية. المجلد الثاني. العدد الرابع. يوليو_ديسمبر ٢٠٢٢م
_ فريد عوف.النقد البيئي الرؤية والتطبيق مجلة دراسات.المجلد (١٢)، العدد (١)مايو ٢٠٢٣م.
_ مازن الواعر. الجغرافيا والأدب تقاطع المعارف البشرية. مقال بمجلة المجمع الجزائري للغة العربية. العدد الخامس السنة الثانية ٢٠٠٧م
_ معتز أحمد إبراهيم. إشكالية القيم بين الإنسان والبيئة. بحث منشور بمجلة كلية الآداب. جامعة الفيوم. المجلد (١٣)، العدد (١) يناير ٢٠٢١م.
_ مايكل برانش. النقد الإيكولوجي. ترجمة: معين رومية. مجلة نوافذ. العدد (٣٦) النادي الأدبي. جدة مايو ٢٠٠٧م.
_ مجلة فصول (مجلة النقد الأدبي) عدد النقد الأدبي وتداخل الاختصاصات، المجلد ٢٦، العدد (١٠٢) ملف خاص عن النقد البيئي. شتاء ٢٠١٨م.
_ مجموعة من المؤلفين. الفلسفة البيئية (من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية). تحرير: مايكل زيمرمان. ترجمة: معين شفيق رومية. سلسلة عالم المعرفة (العدد ٣٣٣) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت نوفمبر ٢٠٠٦م.
_ ميساء الخواجا. التخييل البيئي في رواية طوق الحمام لرجاء عالم. مجلة أبوليوس. المجلد ٨، العدد ٢، جويليه ٢٠٢١م.
_ هلال أحمد وجدي. الإيكولوجيا الاجتماعية (دراسة في فلسفة البيئة لدى موراي بوكتشين) بحث منشور بمجلة كلية الآداب_ جامعة المنصورة. العدد الثاني والسبعون. يناير ٢٠٢٣م.

خامسًا_ المؤتمرات العلمية :

_ محمد أبوالفضل بدران. أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، دبي، ٢٠١٥م.

سادسًا_ الأطروحات والرسائل العلمية :

_عبير جودت حافظ. النقد البيئي ونظرية الأدب (دراسة في نماذج روائية عربية معاصرة) رسالة ماجستير منشورة على شبكة المعلومات. كلية الآداب والعلوم. جامعة قطر. ٢٠٢٣م.

سابعًا_ المواقع الإلكترونية والمقالات المنشورة على شبكة المعلومات:

_ ويكيبديا الموسوعة الحرة. https://ar.wikipedia.org
_ موقع الألوكة https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39426/
_ جمال بامي. الفلسفة البيئية وأخلاق الأرض. مقال منشور على موقع وحدة الإحياء (دراسات وأبحاث المملكة المغربية) رابط المقال: arrabita.ma/blog
_ فيكتور بوستنيكوف. الشعر الإيكولوجي. ترجمة: معين رومية. مقال منشور على شبكة المعلومات. موقع معابر الإلكتروني www.maaber.org

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	الملخص	٨٩٨
٢-	Abstract	٨٩٩
٣-	تأسيسٌ نظري :	٩٠٠
٤-	الأدب والبيئة (الأدب البيئي) :	٩٠١
٥-	النقد البيئي Eco_criticism (الحدود والمهام والاشتغالات) :	٩٠٥
٦-	من التنظير إلى التطبيق	٩١٢
٧-	اللغة وتشكيل التمثلات البيئية :	٩١٧
٨-	خصوصية المكان والحس المكاني :	٩٢٥
٩-	البيئة الحيوية ومركزية الإنسان :	٩٢٨
١٠-	النقد البيئي الجذري (الإيكولوجيا الجذرية):	٩٣٢
١١-	العدالة البيئية Environmental gustice :	٩٣٥
١٢-	الأخلاق البيئية (الإيطيقا الإيكولوجية) Environmental Ethics :	٩٣٧
١٣-	الوعي البيئي الاجتماعي (الإيكولوجيا الاجتماعية	٩٣٩
١٤-	التوازن البيئي (الإيكولوجيا العميقة	٩٤٥
١٥-	التنمية المستدامة والاستدامة البيئية	٩٤٧
١٦-	الخاتمة ونتائج البحث :	٩٤٩
١٧-	الهوامش والإحالات المرجعية :	٩٥٢
١٨-	قائمة المصادر والمراجع	٩٦٠
١٩-	فهـرس الموضـوعـات	٩٦٢